
المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب

١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م

اعداد

الدكتور / صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بقسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة اليرموك
اربـد — الأردن

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب (١٤٤هـ - ٢٩٦هـ = ٧٦١ - ٩٠٩م)

الواقع أن ظروف المغرب كانت مؤاتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة ١٢١هـ = ٧٣٩م، بعد تفاقم المشاكل في البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي كان رغم حسن ارادته وخبرته في تسيير الأمور إلا أن هذه الصفات لم تغن شيئاً أمام النزاع القبلي العربي، الأمر الذي أدى إلى تداعي نفوذ الخلافة الأموية في هذه البلاد خاصة بعد موت الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م، ولعل أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب، تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري على أفريقية سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م. وارغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها وقبول الخليفة مروان بن محمد مضطراً بشرعية ولايته سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م (١).

وكان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم بتكوين دولة لهم بسبب ضعفهم في التنظيم السياسي، وقيامهم بالثورات المستمرة ضد بني أمية دون تنظيم مسبق، جعلهم يستفيدون من أخطائهم السابقة ويلجأون إلى التنظيم والسرية في الدعوة لتكوين الدولة. ونجحت دعوتهم بتكوين الدولة الرستمية التي تبنت آراء المذهب الإباضي الذي انفرد عن غيره من المذاهب الإسلامية بأن الخلافة ليست في قريش، ولا في قبيل من قبائل العرب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأن الجميع فيها سواء، وأن العمل بأوامر الدين كجزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده بل الاخلاص للعقيدة، من هنا تناسبت هذه الآراء مع طبيعة المغاربة ومطالبهم، خاصة الشرط القائم على الجنس، فقد أقبل المغاربة على الأخذ بها أكثر من غيرها، وقام دعاة الأباضية في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم، حتى عمت الدعوة سائر البلاد المغربية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. واحتاج المذهب إلى رجال يقومون بتعريف المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده. ولم يستطع دعاة المذهب الأول كعكرمة مولى ابن عباس، وسلمة بن سعيد، وابن مفيطر أن يقوموا بهذا الدور، فاختر المغاربة بعض الرجال منهم وأوفدهم في بعثة علمية إلى البصرة للدراسة والتعليم والتعمق في أصول المذهب وفروعه، واستمرت مهمتهم خمس سنين عادوا بعدها إلى المغرب، وسموا بـ (حملة العلم) (٢)، ثم قاموا بتدريس ماتعلموه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى، وفي تلك الحلقات تلقى أتباع المذهب عل الأصول والفروع، والسير، والتوحيد، والشريعة، وآراء الفرق الإسلامية الأخرى، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (٣)، فكانت حلقاتهم بمثابة مدارس للعلوم العقلية والعقلية ومراكز للتعريب ونشر الحضارة العربية الإسلامية.

ولم تنقطع الصلة الثقافية بين أباضية المشرق—عمان والبصرة—وأباضية المغرب، فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم ترد إلى المغرب بشكل دائم (٤). كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم إلى المغرب للتدريس والافتاء (٥)، والاطلاع على أحوال الأباضية، وقد أشار أبو زكريا إلى ذلك، بقوله «... وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا (٦) من أهل المشرق، أقبل من عمان يريد زيارة أهل الدعوة...» (٧). إلى جانب إرسال البعثات العلمية من أهل المذهب إلى المشرق للأخذ عن أعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز (٨).

ولاشك أن ذلك الاتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وساعد على اظهار كثير من أعلام المغرب في العلوم الدينية والدينية مثل: الشيخ المهدي النفوسي الذي برع في علم الكلام، وابن يانس الذي برع في علم التفسير، والشيخان الفقيهان أبو الحسن الأبدلاني، وعبد العزيز بن الأوز (٩) اللذان برعا في علم الفقه وغيرهم الكثير ممن أثروا بتأليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية في بلاد المغرب، الأمر الذي ساعد على انتشار المذهب ورسوخه في العديد من المناطق المغربية، مثل: الجزائر ووهران، وجبال الأوراس، وجنوب باغاية، والنصف الجنوبي من أفريقية—تونس، ومنطقة طرابلس الممتدة من خليج سرت الواقع على البحر المتوسط إلى الصحراء الكبرى باستثناء مدينة طرابلس وساحل البحر اللتان كانتا تابعتان للأغالبية من قبل، ونظراً لقربهما من مناطقهم، كانتانقطتي تماس بينهما. وبقي هذا المذهب في هذه المناطق إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.

يقول البكري بهذا الخصوص: «وجبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هواة ومكناسة وهم أباضية» (١٠). وإلى اليوم مازالت فئات منهم في ميزات—جنوب الجزائر—وفي جربة بتونس، وفي ليبيا.

ولما تكونت دولتهم المسماة بالدولة الرستمية (١١)، تبنت المذهب الأباضي، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها، وأصبحت حدودها السياسية بين إمارة الأغالبية شرقاً والأدارسة غرباً، وامتدت جنوباً لتشمل ورقلة ووادي ريغ والجريد، وجبال دمر إلى طرابلس. وجبل نفوسة، وأصبحت على مقربة من الحدود المصرية.

ولقب حكامها بالأئمة إلى جانب لقب أمير المؤمنين (١٢)، وكما ذكرنا كان نظام اختيار الحكام قائم على مبدأ الشورى، بدليل أن الإمام عبد الرحمن بن رستم عندما أدركته الوفاة، قام بتعيين سبعة رجال من أهل الشورى—ممن عرفوا بالتقوى والورع—لاختيار امام منهم، وهم: ابنه عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة، ويزيد بن فندين اليعربي، وعمران بن مسعود الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سرحان، وبجعل ابنه ممن يقع عليهم الاختيار، أحدث احتجاجاً من قبل مسعود الأندلسي، ويزيد بن فندين، وخاصة الأخير الذي رأى في هذا الأسلوب تغليب فكرة التعيين بالوراثة على فكرة التعيين بالانتخاب (١٣).

ولك ينال الإمام التأييد لابنه من فقهاء وزعماء الأباضية (١٤) في المشرق أرسل وفداً إليهم يستفتيهم بما حصل، فجاء الافتاء لما فعل، ولكن ابن فندين لم يقنع، فلجأ الإمام إلى محاصرته والتقليل من شأنه، فعهد إلى الاصهار مع أحد شيوخ لواته الكبار وتزوج بابنة أمير هواراة أحد بطونها فانحازت لواته له (١٥).

ونال البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، وتبعتها البيعة العامة من أبناء الرعية وبهذا نال الامامة حسب الأسلوب المتبع في الدول الاسلامية ونودي به إماماً للدولة (١٦) سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م.

وجرت العادة أن يكون للإمام مجلس يتكون من العلماء والعقلاء المتقين المخلصين، والذين لهم دراية بالأمور وهم يعدون له ظهيراً، ويقوم الخطباء بترديد البيعة للملأ على المنابر قصد اشهارها، فالخطيب أبو الربيع كان يعلن دائماً عن بيعة الإمام عبد الوهاب على منبر المسجد في الأيام الأولى من توليته بقوله: (الامام عبد الوهاب أماننا، وثقتنا، وإمام المسلمين أجمعين، فأنا براء ممن خالفه وأنكر عليه شيئاً غير حق) (١٧).

ويعلن الإمام عند توليته عن منهجه السياسي، ويوجه كتاباً للأمة يتضمن النصيح والارشاد، واتباع أوامر الله، من هؤلاء؛ الامام أفلح بن عبد الوهاب الذي وجه لعماله كتاباً ليقراؤه على المنابر للرعية بعد أن بدأها بالبسملة والصلاة على النبي قال: من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين. أما بعد، فالحمد لله في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطاً... إلى أن يقول: «وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طريق الحق وحملوكم على المنهاج، ففي أتباعهم النجاة وفي خلافهم الهلكة؛ وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفر...» إلى أن يقول: «إن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بالعدل في عباده وبلاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم... فاتقوا الله حق تقاته وتواصوا بالبر والتقوى ومروا بالمعروف المقتضى عليكم وانها عن المنكر الذي قد نهيتهم... فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار والعمل بما عمل به أسلافكم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي أتباعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي... وقد بالغت إليكم في النصيحة، وشرحت لكم الموعظة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي، ونهيتكم عما انهى عنه نفسي نصيحة الله واجتهاداً في طلب رضائه، والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». والكتاب طويل، اقتصرت على فقرات منه لعدم اتساعه في هذا المجال (١٨).

كما يصدر الامام بعد توليته السلطة قراراته المسماة بالبربرية (البيورلدي)، ومن ضمنها ارسال الوفود الدبلوماسية إلى الأمراء والملوك الذين تربطهم به علاقات مودة، فقد أرسل الإمام أبو بكر بن أفلح بن الامام عبد الوهاب، وفداً إلى ملك مملكة صوصو احدى الممالك السودانية، برئاسة محمد بن عرفة أحد أعيان مدينة تيهرت، ومعه هدية منه إلى الملك، وكان حسن الهيئة والخلقة، فأعجب به، وعبر عن اعجابه بلهجته قائلاً: «أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال» (١٩).

ونهجوا غيرهم من حكام المسلمين على تدريب ولاية العهد، فقد عين الامام عبد الوهاب حفيده (ميمون) على بيت المال، وأوكل إليه الجبايات رغبة منه في تولي الامة من بعده، لكن رغبته لم تتحقق، أما الامام أبو اليقظان فقد قام هو الآخر بتدريب ولده المكنى بأبي حاتم على أمور الدولة، وعهد إليه مناصب متعددة، مما لفت نظر العامة إليه الذين حملوه على الأعناق يوم العيد ذاهبين به إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة العيد لتأخر والده عنها، ولما علم والده بالخبر، قال لأمه واسمها غزال: «أحذري يا غزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطاناً» (٢٠). ولعل اسمها كان تشبهاً بغزالة أم شبيب بن يزيد الشيباني التي كانت من أبرز نساء المذهب في المشرق (٢١).

وبالمناسبة فقد شاركت المرأة الأباضية الرجل في فنون السياسة والحرب، وأسهمت في التنظيم والدعوة، وبرزت في ميدان المعرفة، أمثال العجوز (وقاية) المعروفة بزهدا وسعة علمها وحسن آرائها، فقد استشارها الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في الولاية المعروضة عليه من الإمام عبد الرحمن على جبل نفوسة (٢٢) فشجعتة على قبولها (٢٣).

وتعددت العناصر المكونة للمجتمع الأباضي، الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ سياسة التوازن بينها خوفاً من الفتنة، ولكن عندما يشعرون بالخوف على أنفسهم أو مصالحهم يقومون بضرب العناصر بعضها ببعض، إلا أن الغالب على تصرفاتهم، حل المشاكل بالطرق السلمية، وعدم التعرض إلى سفك الدماء.

فقد عقد الامام عبد الوهاب مع الوالي المتمرد خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى اتفاقاً تم بموجبه اقتسام ولاية نفوسة بينه وبين واليه أبو عبيده عبد الحميد الجناوي، كما أننا نلمس من تصرفات الأئمة الأول الغيرة على الدين وتطبيق أحكام الشريعة في إماراتهم.

ونلمس أيضاً تطوراً في مظاهر البلاط الرستمي، عما كان عليه الحال من الزهد والتقشف أيام الأمير عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة الرستميين الذي لم يحو بيته—يومذاك—إلا على حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في فناء داره، بينما الأئمة الذين جاءوا من بعده، كانت حياتهم شبيهة بحياة حكام المشرق، وهذه شأن كل الدول. فقد امتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي (تسلونت) خارج تيهرت، واقتنوا الجوارى والغلمان والعبيد والحشم، وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن (تماليت) خارج المدينة (٢٤)، لئلا يتعرضوا إلى النقد والتشهير من السكان المزدهمين في المدينة.

وأصبحوا يخرجون في مواكب خاصة يحيط بهم فرسان أعدوا لهذا الغرض، حاملين الأعلام الذين كان من أبرزها علم كبير يسمى (البند) (٢٥) ولم يشر المؤرخون إلى لون الأعلام ولا إلى شعاراتها، ويظن أنها بيضاء، لأن اللون الأبيض محبب لدى المسلمين عامة

والمغاربة والأندلسيين خاصة، إضافة إلى رغبتهم في مخالفة شعار العباسيين الممثل بالسواد، ويبدو أن هذه الأعلام كتب عليها آيات قرآنية تتماشى مع فحوى المذهب، وقد عثر في وادي ميزاب بجنوب الجزائر على رايات قديمة محفوظة في المساجد بيضاء اللون مكتوب عليها آيات قرآنية قريبة الشبه بالرايات الرسمية.

وكان لهم مواكب للخروج وللصيد في أوقات فراغهم، وبلغ تأثيرهم بحكام المشرق أن لبسوا الثياب المزركشة والحلي القشبية ووضعوا على رؤوسهم ما يسمى بـ(الطرطور)(٢٦).

واتخذ الامام أبو اليقظان سرادقاً على طريقة خلفاء بغداد تأثراً بهم بسبب عيشه مدة طويلة في حاضرتهم—بغداد— أثناء اعتقاله. أما عن الولائم والحفلات، فقد أقاموا الأسمطة—الجفان— لا طعام الفقراء أيام الأعياد والمناسبات الهامة. فكانت تقام الحفلات التي يحضرها وفود من كافة أنحاء الدولة، وكان عمال الإمام ورؤساء القبائل والعشائر ينزكون في (دار الضيافة) ثم ينصرفون إلى عمالاتهم ومضاربهم بعد أن يأخذوا نصيبهم من الأرزاق والهدايا والألطف التي توزع عليهم في هذه المناسبات(٢٧).

وارتبطت الدولة الرسمية بعلاقات مع جيرانها اتسمت بالمد والجزر والود والبغض حسباً تمليه الظروف وخاصة السياسية منها على المنطقة كلها، ونظراً لقرب حدودها من دولة الأغلبية، والاختلاف في المذاهب الدينية وفي الولاء السياسي، كان من البدهة أن تحدث بينهم المشاحنات(٢٨)، والواقع أن الأغلبية لم يشكلوا خطراً مباشراً على حاضرة الرستميين(تيهت) لبعدها عن افريقية مسافة قدرت مسيرة شهر على ظهور الإبل(٢٩)؛ وإنما يعود إلى مراكز استقرار رعايا الدولة الرسمية في الجبال، وقسم منهم امتن حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر حسب الظروف الطبيعية(٣٠)، وقد حدث أول احتكاك له بين الأغلبية والرستميين زمن الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي كان معاصراً للإمام عبد الوهاب بن رستم الأباضي الذي تولى الإمامة ٢٦٨هـ / ٨٨١م، وسبب هذا الاحتكاك أن، بربر هواره الأباضية، مافتتوا يثرون القلاقل ضد بني الأغلب قصد انفصالهم عنهم والانضمام إلى دولة مذهبهم—الدولة الرسمية—ومن الواضح أن الإمام عبد الوهاب بن رستم هب لنجدتهم مستعيناً ببربر نفوسة القاطنين بالجبل المسمى باسمهم، رغم أن المصادر الأباضية تنكر ذلك، مشيراً إلى أن قدومه إليهم كان بغرض الحج وأن أهل الجبل قد أشاروا عليه بالبقاء تحسباً من مكائد العباسيين واعتقاله فيما لو علموا بوجوده في أرض الحجاز(٣١)، ويبدو أن بقاءه ساعده في الاضطلاع على أحوال بربر هواره ومايلاقونه من متاعب من جيرانهم الأغلبية، فقام بضمهم إلى دولته وتعهده بالمدافعة عنهم، وعين عليهم والياً منهم اسمه مدراراً، بعد أن كانت هذه القبائل تعيش نظاماً اجتماعياً خاصاً بها يديره مجلس مكون من مشايخ قبائلهم راضين بالانعزال خوفاً من ضربات الأغلبية لقربهم منهم(٣٢).

ويبدو أن طابع العلاقات بين الدولة الرستمية، ودولة الأغالبة الممثلة للدولة العباسية في افريقية كان واضحاً، ففي عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي خلف والده بعد وفاته سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م أندلعت الفتن في عهده، وكان من أبرزها ثورة الشائر نفاث الذي لم يرض عن تولية الإمام، فلجأ الامام أفلح إلى تضيق الخناق عليه مما اضطره للذهاب إلى المشرق ونزل لاجئاً سياسياً عند الخليفة العباسي ببغداد، واستخدمه الخليفة وسيلة ضغط على الدولة الرستمية، كما قام الخليفة الواثق بالله باعتقال محمد بن الإمام أفلح المكنى بأبي اليقظان أثناء تأديته فريضة الحج. كل هذا يدل على ماكانت تقوم به من تضيق الخناق على الدولة الرستمية.

وعمد الأغالبة إلى إثارة الفتن الداخلية للدولة الرستمية، ويرى صاحب الازهار (٣٣)، أن شخصاً يدعى خلف الخادم مولى بنى الأغلب—استطاع عن طريق بذل الأموال— إثارة الفتن بين سكان تيهرت، فانقسموا إلى معسكرين، الامام وأنصاره من العجم والنفوسيين في جانب، والجنود العرب في جانب آخر، ويبدو أن الجو الاجتماعي كان مهيباً لضرب العناصر بعضها ببعض، اذ سرعان مانجح في مهمته وقام العرب والجنود باحراق درب النفوسيين معبرين عن سخطهم للبربر، وبالرغم من جهود الإمام أبي بكر في رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناوئ—العرب— في عدة مواقع، لكن الخلافات والفتن لم تهدأ واستمرت سبعة أعوام حتى عهد الإمام أبو اليقظان (٣٤).

وبادل الرستميون الأغالبة الكيد بالكيد، فقد ثار بربر الأباضية في طرابلس سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م بتحريض من الإمام أبو اليقظان محمد، وفي هذا يشير ابن خلدون في كتابه (العبر) (٣٥) أن الأباضية في طرابلس ثاروا على عاملها أيام الأمير ابراهيم بن الأغلب (٢٤٢-٢٤٩هـ= ٨٥٦-٨٦٣م) وهزموا عاملها، فجهز الأمير ابراهيم جيشاً بقيادة أخيه زيادة الله وتمكن من اخماد ثورتهم. لكن رغم هذه العداوة فقد توحدوا في جبهة قتالية واحدة لدرء خطر صاحب مصر العباس بن منصور بن طولون سنة ٢٥٦هـ/ ٩٠٨م، لاحقاً بالأغالبة ولكن لانقاذ أخوانهم الأباضية التابعين لإلياس بن منصور النفوسي، الذي بطش ابن طولون بهم وهتك حجبهم (٣٦) بعد أن قضى على الأغالبة بمقتل عاملهم على طرابلس، ويروي ابن عذاري، أن الياس هذا استغاث بالبربر القاطنين بطرابلس أو الضاريين حولها، ويبدو أن هؤلاء كانوا من أتباع المذهب ومحسوين على الدولة الرستمية.

أضف إلى ذلك أن ابن طولون قد أرسل قبل رحيله من برقة إلى زعيم جبل نفوسة يدعوه إلى الطاعة، ويتوعده إن لم يجبه إلى طلبه. لذلك تلاقت رغبة الطرفين في درء الخطر الطولوني، ودليل ذلك أن الأمير الأغلبي كان يقاتل ابن طولون لوحده قبل أن يصل الأخير إلى طرابلس، وهذا ما يفصح عنه ابن الداية بقوله: (فلما كان اليوم التالي وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثني عشر ألفاً من الأباضية) (٣٧).

ويبدو أن هذا الاتفاق كان مؤقتاً، بدليل أنه بعد مرور ستة أعوام على ذلك الحادث قام الأغلبية بالاعتداء على جبل نفوسة أيام الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد الذي خلف والده أبو اليقظان سنة ٣٨١هـ / ٨٩٤م. وقتلوا عدداً من رجاله، ولعل الأغلبية وضعوا في اعتبارهم بأن يكونوا على بوابة مصر، وأن يسيطروا سلطانهم على تلك البقاع حتى لا يفكر الطولونيين في الاعتداء مرة أخرى، وربما استأنسوا من أنفسهم القوة فقاموا بمعركتهم الشهيرة مع الرستميين عند موضع يقال له (مانو)، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم، ولم تقم لهم قائمة بعد أن انهارت قبيلة نفوسة التي كانت تشكل درعها (٣٨) الواقى وبسبب الخلفية الفكرية الأباضية؛ التي تصر على الزامية مناصرة الرعية لامامها (٣٩)، نتج عن ذلك عدم الاهتمام في الجيش، إلى جانب ما يراه العلماء والفقهاء منهم، من أن وجود الجيش النظامي في الدولة يرأسه أعلى سلطة فيها يؤدي إلى فرض السلطة الفردية، وبذلك يتحول نظام الحكم من نظام دستوري جماعي إلى نظام فردي مستبد، لعل هذا كان سبباً في ضعف القوى العسكرية (٤٠) عندهم، إلى جانب ما نتج عن انكسارهم في المعركة من إشاعة الفوضى، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنيتها السياسية والعسكرية، مما أسرع في زوالها فيما بعد.

أما علاقاتهم مع الدول الأخرى، فلم تكن بمثل ما كانت عليه مع دولة الأغلبية من التشابك والتعقيد، فكانت علاقاتهم مع بني واسول المداريين بسجلماسة، تقوم على الصداقة لوجود كثير من نقاط الالتقاء بين المذهبين الصفري والأباضي إلى جانب الزواج السياسي، فقد تزوج مدراراً بن البسع الصغرى من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤١)، وكان لهذه العلاقة أثرها الواضح في تيسير السبل التجارية للأباضيين الذاهيين إلى السودان.

أما علاقاتهم مع الأدارسة فقد اتسمت بالمرونة ما بين الحرب والسلم (٤٢). ولكنها لم تأخذ المدى التي اتخذته مع الأغلبية، لاسيما وأن فرقة الواصلية—الذي كان يعد عبد الحميد الأروبي زعيمها—كانت تمارس حياتها في المجتمع التاهرتي مثل غيرها من الفرق الإسلامية الأخرى.

وارتبطت الدولة الرستمية بمصر ارتباطاً وثيقاً عن طريق التجارة إلى جانب وجود عدد من علمائها، أبرزهم: شعيب المصري الذي شارك بفتنة ابن فنين. أما علاقاتهم مع الأمويين في الأندلس، فكانت تربطها العداوة المشتركة للدولة العباسية، ولكن التقارب فيما بينها لم يصل إلى درجة التحالف الفعلي ضد أعدائها، وإنما أقصى ما وصل إليه تبادل السفارات والهدايا، فضلاً عن الصلات التجارية والاقتصادية (٤٤)، حيث كانت تتردد السفن بين وهران والمرية حاملة العلماء والمسافرين إلى جانب البضائع التجارية، وكثرت وفود الأندلسيين إلى الحاضرة تيهرت (٤٥)، وكان

من أبرزهم عمران بن مروان الأندلسي، ومسعود الأندلسي، اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده، إضافة إلى حادثة ابن حفصون التي دلت على وجود الأندلسيين في تيهرت، وعلى تعاطف الأئمة الرستميين مع بني أمية بالأندلس إلى جانب ما قام به ابن رستم سنة ٢٠٧هـ - ٨٢٢م بزيارة ودية إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أكرم وفادته.

وبالجملة توطدت العلاقات بين الطرفين في عهدي الأميرين عبد الرحمن الأموي وعهد أبي اليقظان الرستمي الذي كان يعد من الأئمة الأواخر في الدولة الرستمية الأمر الذي جعله يعرض الكثير من أمواله على الخليفة الناصر لأخذ رأيه فيها (٤٦).

وفي إطار الولاية للدولة: تفنن الأئمة في اختيار الولاة فلجأوا إلى سبر غورهم لمعرفة مدى رغبتهم بالولاية وزهدهم بها، فقد قام الإمام عبد الوهاب بسبر غور الوالي مدمان الهرطلي بأن أرسل له كتابين، تضمن الأول العزل، ويتضمن الثاني التثبيت، فلما عرض عليه الكتاب الأول وافق على ما جاء به، عندها سلم له كتاب التثبيت على الولاية بعد بيان حسن نيته (٤٧)، إلا أن بعضهم رفضها وطلب اعفائه منها، فوافقه الإمام على طلبه، فقد طلب والي جبل نفوسة أفلح بن العباس، من الإمام عبد الوهاب بن رستم اعفائه من ولايته فوافقه على ذلك وعين بدلاً منه أبو منصور النفوسي التندميري (٤٨).

ومن ولاته في الجهات الشرقية من دولته، سلام بن عمرو اللواتي، واليه على سرت وماحولها، وسلمة بن قفطان الزراغي واليه على قابس ونواحيها، ووكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف على قفصة وماحولها، وأبو يونس وسيم النفوسي التمزيني واليه على القنطرة وحاضرتها تيجي، وأبو عبيدة الجنائني، وأيوب بن العباس، والسماح بن أبي الخطاب، وأبو منصور النفوسي التندميري محل هؤلاء ولاته على جبل نفوسة والعلامة مدراراً واليه على جبل دمر.

أما الولاية الثلاثة، بيران اليزميرتني المزاتي، وجارون القمري الزناتي صهر الامام، ونهدي بن عاصم الزناتي فلم نعرف ولاياتهم.

أما ولاته في منطقة الأوراس، وشمال تيهرت وغربها وشرقها، وفي تبلغمت، والأغواط، وجبال راشد (جبال عمور) الآن، ورجلان وتيقورت، فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل هذا راجع لضياح عدد من الكتب التي كانت في مكتبة المعصومة مما جعلتنا نفتقر إلى هذه المعلومات (٤٩).

ويبدو أن الأئمة الرستميين مالوا إلى تعيين ولاية جدد عند توليهم الإمامة، فالإمام أفلح ابن عبد الوهاب قام بتغيير ولاية أبيه ولم نعرف السبب، ولكن طالما أن الوالي يمثل الإمام في ولايته، فربما لم يرض عن البعض منهم أو اقتضت الظروف تغييرهم، فقد عين سعد بن أبي يونس على قنطرة، وميال ابن يوسف على قبيلة نفازة، وأبو العباس بن

أيوب على جبل نفوسة بدلاً من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي، ثم استبدله في أواخر أيامه بأبي ذر إبان بن وسيم النفوسي المشهور بالفتيا، والذي لم يارسها إلا بعد أن رخص له شيخه أبو خليل بالافتاء بقوله: (افت يا ابن للناس بالرخص، فإن لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك) (٥٠).

وهذا دليل على الاهتمام بصفات الوالي الذي كان يجمع إلى جانب معرفته في الإدارة، العلم والورع ليتسنى له حل قضايا الناس ومشاكلهم، فهو في ولايته بمثابة الإمام في الدولة فالإمام أفلح وجه كتاباً إلى واليه مبال بن يوسف، يطالبه فيه بالتحلي بالصفات التي كان يتحلى بها السراة من الأباضية السابقون له، الذين كانوا يقضون على الفتن وهي في مهدها، وعلى البدع قبل انتشارها، خوفاً من بلبلة الفكر وتشيت صفوف الأئمة قصد الحفاظ على وحدتها (٥١).

وجعل ولاته يراقبون بعضهم بعضاً، بارسال التقارير إليه، عما يقوم به بعضهم من أعمال الشغب والفتن في ولاياتهم، فقد أرسلوا له كتاباً بحق الوالي ابن فندين، يصفون فيه مايفعله وأعوانه من أعمال الشغب والفتن، وقد أشار إلى ذلك النفوسي في كتابه الأزهار بقوله: (...فكثرة الكتابات في حقه إلى الإمام من عماله وغيرهم ممن اتتمنهم توخصهم بمكانته وأخباره بأحوال الولاة والعمال والرعية في الجهات...) مما دعا الامام أفلح إلى أن يرسل له كتاباً يتوعده فيه ويتبرأ منه، والكتاب يخلو من البسملة والصلاة على النبي لأنه كتاب تهديد ووعيد ومما جاء فيه: (...ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فإن كنت كما كتب إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ماكتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لاطاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم الذي اباحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك ما لا بد لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فإظهار الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها) (٥٢).

وقد يكرم الإمام أحد ولاته بتميزه عن غيره بأن يسند إليه في منصبه شخصاً يقوم بمساعدته، ويشاركه الرأي في العضلات التي تواجهه يسمونه عندهم بـ(المزوار) المتفقة بالأمور الشرعية وغيرها، من هؤلاء الولاة؛ الوالي السمع بن الخطاب الذي ميزه الإمام عن غيره بهذا المنصب، وجعل معه مزواراً (٥٣).

ونهج الإمام عبد الرحمن ومن تلاه من الأئمة، منهج الاختيار للقضاة، فكان يعين في هذا المنصب ممن اتصفوا بالورع وسعة المعرفة والتقيد بالأحكام الشرعية، مع الاهتمام برغبة الشراة (٥٤) من أبناء المناطق المراد تعيين قضاة فيها، لتسهيل مهمتهم والتعاون معهم في تطبيق الأحكام. فقد حدث أن اختار الشراة أيام الامام أفلح (محكم الهواري)

الساكين بجبل أوراس ليكون قاضياً عليهم وأبلغوه باختيارهم، فرد عليهم قائلاً: «هو رجل نشأ في البادية لا يعرف لذي القدر، قدره، ولالذي الشرف شرفه، وإن كان ليس منكم أحد حب أن يظلم ولا يظلم، ولكن تجبون أي يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لا عراضكم وامتهان لأنفسكم». وهذا يدل بوضوح على رغبته التي تتفق مع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تعيين القضاة من البيئات التي نشأوا فيها، ولكن اصرار الشراة في تعيينه دون سواه، جعله يوافق على ذلك، فكتب وكتب معه الشراة إلى (محكم الهواري) كتاباً تضمن تكليفه بالقضاء جاء فيه: «بعد البسملة، أما بعد فإنه قد نزل بالمسلمين أمراً لا غنى بهم عن حضورك، وهم منتظرون لقدمك ولا يسعك فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم، ليجمع رأيك ورأيهم على مافيه صلاح المسلمين». (٥٥)

ولما وصل الكتاب إلى (محكم)، حاول التهرب من التكليف، وعبر عن ذلك بقوله: «إن الحق مر أمر من شرب الدواء إلا كرهاً، وأنتم مترفون أبناء نعم، وغيري أحب إليكم مني، نصحتكم فاقبلوا نصيحتي» (٥٦). وفي قوله ما يطابق قول الإمام، لكن اصرار الشراة جعله يوافق، فأنزلوه دار القضاء، وعينوا له خادماً يقوم بخدمته. وفعلاً صدق ظنهم فيه بدليل أن شقيق الإمام أبا العباس وخصمه تحاكماً عنده، بعد أن اعتذر الإمام أفلح عن البت في الخصومة لمكانتها عنده، وحبها إليه فحكم القاضي (محكم) لخصم شقيقه أبي العباس (٥٧)، مما ثار ثائره فاشتكاها لشقيقه الإمام، فقال له الإمام: «يا أبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل، والصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مدهاناً» (٥٨).

وجرت العادة في تعيين قاضي الحاضرة أن يؤخذ رأي مشايخ الأباضية وغير الأباضية ممن هم في الحاضرة، شريطة أن يكونوا من كبار القضاة بعلمهم وتقواهم وضبط أحكامهم، فكان قاضي الحاضرة أيام الإمام أفلح عمرو بن فتح الله النفوسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، الذي أعيد إلى هذا المنصب أيام الإمام أبو بكر بن محمد (٥٩).

وعُرف عن قضاة الحاضرة إلى جانب علمهم ونزاهتهم نباهتهم وحسن ذكائهم، فالقاضي عمرو بن فتح الله النفوسي، عندما عرض عليه قضية متاع تخاصم فيه اثنان، قام على الفور بحجز المتاع وسؤال كل منهما على حده، ولما تبين له من استجوابها صاحب المتاع حكم له.

أما عن النزاهة، فقد كان أحد أولاد الإمام أفلح غير محمود السيرة، وكان قاضي الحاضرة أبو عبد الله محمد، وفي أيامه وقع ابن الإمام بمشكلة أخلاقية باعتهائه على فتاة تقدمت أمها بظلامتها للقاضي، فقام القاضي وأعوانه في البحث عن الفتاة، ولكنهم عجزوا عن العثور عليها، عندها قدم استقالته لأنه أدرك عجزه عن القيام بمهمته. (٦٠)

وبالجملة كان القضاء في الجرائم التي تستوجب الحدود كالقتل والسرقة والزنا، وشرب الخمر، يمكنون المتهم من الدفاع عن نفسه، وبيان حجته، فإن ثبتت جريمته حكموا عليه بحكم الله، وينفذ الإمام في الحاضرة وولاياته في الولايات حكم القضاء دون التهاون فيه، بغية إقامة العدل ونشر الأمن في أرجاء الدولة (٦١).

أما عن مجلس المظالم، فقد تنوعت أغراضه، فإذا كان الغرض منه مناقشة أصحاب الفكر المغالين بأفكارهم، عقد لهم مجلس يضم ذوي الاختصاص، لمناقشتهم، والرد عليهم، ففي زمن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان يعقد كل يوم في المسجد الجامع مجلساً للبحث في قضية من القضايا، فيجلس على وسادة مصنوعة من الجلد، يقابله ذوو التخصص في المسألة المطروحة للبحث، ففي القضايا الفكرية، كان يقابله رجل من كبار قبيلة نفوسة واسمه عيسى بن فناس، ورجل من كبار قبيلة هواة يكنى بابن الصغير، امتاز عن عيسى بغزارة علمه، وعرف عيسى بكثرة ورعه عنه، وبين يدي الإمام وجوه الناس، كان أدناهم منزلة رجل من العرب واسمه محمود بن بكر، ورجل من العلماء البارزين اسمه عبد الله بن الممطي الذي عرف بكثرة تأليفه وحسن مناظرته لعلماء المعتزلة وغيرهم من الفرق المغالية، يرد عليهم مبيناً غلوهم، فكان بعمله يعد المدافع عن المذهب (٦٢).

أما إذا كانت القضية سياسية، ضم المجلس رجال السياسة لمناقشتها وبيان مضارها من فوائدها، وإذا كانت إدارية، جمع لها الإداريين المحنكين، وإذا كانت حربية جمع لها قادة الحرب، وإذا كانت صناعية أو فلاحية جمع لها من أرباب الصناعة والفلاحة، إلى جانب ندمائه الذين يساعدونه في حل المشاكل وتطبيق الأحكام عليها، فهم بعملهم يعدون ظهيراً له (٦٣).

وقد تصله ظلامات من القرى النائية مكتوبة باللغة البربرية، فيقوم المترجم بترجمتها للغة العربية (٦٤) وإصدار الحكم فيها، وكان من أبرز المترجمين أبو سهل الفارسي الذي يعد من أبناء الطبقة السابعة، من علماء الأباضية.

أما الحواضر وشبه الحواضر فيبعث أهلها شكاياتهم في ولايات الدولة بصحبة عدد من رجال المجلس (٦٥)، فإذا قدمت إليه شكايات قام بالحال في عقد مجلس لها للبت فيها في نفس المكان.

أما الحسبة، فلم تكن مقصورة على موظفيها فحسب، بل شاركهم في مهامهم الشراة، وهم بمثابة أهل الحل والربط عند أهل الجماعة، وهم مجموعة من الرجال بلغ عددهم الأربعين أو يزيد قليلاً، وهؤلاء اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة أو خوف، ولو أدى بهم الأمر إلى القتال (٦٦)، فهم يمتحنون الأئمة والولاة ويسبرون غورهم ويعطون رأيهم فيهم من

خير أو شر، وحكمهم عند الرعية لا يناقش لثقتهم بهم وعلمهم باخلاصهم لدين الله وتطبيق شرائعه، ويشار إليهم في علمهم العلماء والفقهاء، فالعالم أبو عبيدة عبد الحميد الجناوي أبرز علماء جبل نفوسة أخبر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عما فعلته خيله ودوابه من فساد في مزارع وأشجار أهل الجبل بسبب إهمال رعاته أثناء مروره من الجبل لتأدية فريضة الحج قائلاً له: «يا أمير المؤمنين قد أذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لا همالك رعاتك فكفها عن المضرة والا حال بيننا وبينك هذا، يعني السيف» (٦٧). فأعجب الإمام بقوله وشكره على حرصه واهتمامه بأمالك المسلمين وعينه فيما بعد والياً على الجبل.

وبالجملة فقد كان رجال الحسبة عندهم شأنهم كشأن غيرهم من دول الاسلام، يقومون باظهار المعروف عند زواله، وإزالة المنكر عند ظهوره، وتعددت اختصاصاتهم حتى شملت جميع مناحي حياة الأئمة، فكانوا يراقبون الحمالين الذين يحملون الدواب فوق ماتطيق، ويمنعون أصحاب الحرف من إقامة مصانعهم في المدينة حتى لا تضر سكانها، ويهبون لنجدة كل ملهوف، ويضربون على يد الظالم، لهذا كان الأئمة يختارون لها رجالاً ممن عرفوا بالصرامة والحزم والحرص على تطبيق أوامر الشريعة، وكان جهلهم من أهل نفوسة الجبل الذين نزلوا في الحاضرة تيهرت قادمين من الجبل، فلا عشائر له يجابونها، ولا أقرباء كثيرون ليغضوا الطرف عنهم عندما ينحرفون بأعمالهم عن أصول الشريعة (٦٨). وقد شاهدتهم ابن الصغير أيام الإمام أبو اليقظان، فلخص أعمالهم بقوله «... ثم أمر أبو اليقظان قوماً من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، قالوا: «فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة ليوهم الناس بانتفاخ لحمها أنها سمينة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها انزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قدراً في الطريق أمروا من حول الموضوع أن يكنسه» (٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن بقايا هذا النظام مازال موجوداً في بلاد ميزاب جنوب الجزائر، يقوم رجاله بهذه المهمة بمحض اختيارهم دون أن يتقاضوا أجراً من خزانة البلدية، فيراقبون الباعة خوفاً من الغش أو الاحتكار، ويأمرون بنظافة الشوارع من الأقدار، واصلاح الطرق من الحفر، وترميم المباني المتداعية، وحراسة المدن والقرى خوفاً من اللصوص، أو دخول العابثين إليها من الدخلاء، ومراقبة الحمالين الذين يحملون الدواب أكثر من طاقتها وغير ذلك من الأمور الأخرى (٧٠).

وسلك الإمام عبد الوهاب في تعيين رجال الشرطة نفس المسلك الذي سلكه في اختيار رجال القضاء، فعين لها رجالاً اتصفوا بالأمانة وحسن الإخلاص في العمل، وفي عهد الإمام أبو حاتم انتشر الفساد بين أفراد الرعية، فشاع السكر فيما بينهم، وكثر وجود دنان الخمر والخواري في البيوت، واقتنوا الغلمان اخداناً، وانتشر السراق وقطاع الطرق،

فاستدعى الإمام وجهاء الحاضرة ومشايخهم وأخبرهم بهاهو حاصل، وطلب منهم اختيار رئيس للشرطة، لكي يقوم بقطع دابر الفساد الذي انتشر بين الناس بسبب الحروب، وكثرت الفتن، فأشار قسم منهم باختيار شخص اسمه نكار كان قد قتل ابنه بين يدي الإمام، ورأوا من الواجب مواساته والتخفيف عما أصابه إلى جانب ما اتصف به من سداد الرأي، وقسم آخر أشار إلى إبراهيم بن مسكين الذي له صلابة في الحق، لاتأخذه لومة لائم، فعين الاثنين رؤساء للشرطة، (فقاما بكسر الخواي بكل دار مهما علت منزلة صاحبها، وضربا بالسوط، وسجنا كل مجرم وشرودا الغلمان الأفلات في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحلأ الناس على الجادة، فخاف المنافق، وأمن البري، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل، وسار الناس إلى بعضهم بعضاً، في أي وقت من الأوقات دون خوف أو وجل) (٧٢).

أما في طرابلس وجبل نفوسة وماتلاهها من المناطق، فلم يستطع الإمام أن ينشر الأمن فيهما مثلما كان بالحاضرة، وشغل الناس ببعضهم، ولم يقدرُوا على مساعدة الإمام أثناء حروبه مع الأغالبة (٧٣).

ولم تقتصر رئاسة الشرطة في الحاضرة على شخص يعين من أبناء الرعية، وإنما تجاوزتها إلى تعيين رئيس لها من أبناء الأسرة الحاكمة، ففي زمن الإمام أفلاح، كان أخوه أبو اليقظان يقوم بتفقد الحراس ليلاً، فيعمل على ترتيبهم وتجهيز دوابهم، ويأمرهم بمراقبة الطرقات والضرب على أيدي المفسدين العابثين، فإن حصل شيء، يخبر أخاه في صباح اليوم التالي بما حدث (٧٤).

وكان التدريب على القتال مهنة واجبة على كل فرد منهم، حتى الصبية كانوا يدرّبونهم على الضرب بالقضبان بدلاً من السيوف اتقاء لشرها، حتى إذا مهرّوا في ضربها استخدموا الضرب بالسيوف، فكان مجتمعهم أشبه بثكنة عسكرية إلى حد ما (٧٥).

وولع الرستميون بتربية الخيل، وكان أمتع الألعاب لديهم لعب الفروسية والضرب بالسيف، وكان كل فرد منهم يظهر مهارته بها في كل مناسبة من المناسبات السارة والحربية، وكان من أبرز فرسانهم، بكر بن يبيب، وبكر بن عبد الواحد، وأيوب بن العباس. وهناك حوادث كثيرة دلت على ولعهم بالخيل، والتسلي بركوبها في أوقات الراحة، ففي أيام الإمام أبي الخطاب، كان جنده يتسابقون على ظهور الخيل في أوقات فراغهم، وفي يوم من أيام السباق، شاهدوا مايفعله عاصم السدراتي من فضائح بنساء القيروان عند غزوه لها، فأسرعوا إلى أمامهم أبي الخطاب يخبرونه بمايفعله عاصم وجنده، فقام أبو الخطاب بتجريد حملة عسكرية لانقاذ القيروان وهو يقول: «اللهم بيتك، اللهم بيتك».

ومن الأدلة الأخرى الدالة على ولعهم بفنون الحرب، ماطلبه المعتزلة من فارسهم أيوب بن العباس بتعليم أبنائهم على أساليب القتال والضرب بالسيوف، وماكان من خديعتهم له ونجاته منهم (٧٧). وكانوا يصفون كل من يقدر على حمل السلاح ولايمتسقه بالنقص في الذكورية (٧٨).

ومن طرق القتال عندهم تشكيل الصفوف المتراسة وربط أرجلهم بعضها ببعض، وأخذ العهد على أنفسهم بعدم الفرار، وكانوا في قتالهم يدورون مع المعركة حيث دارت، وسمي هذا النوع من القتال عندهم بمعارك (الربد) (٧٩). وقد يستدرجون عدوهم لاقامة المعركة بالقرب من الجبال ليستعينوا بها في التغلب عليه لاسيما وإن معظمهم من سكان الجبال (٨٠). ومن عاداتهم في الحرب، عدم متابعة العدو أثناء فراره، وعدم الاجهاز على الجريح (٨١).

وشارك العلماء اخوانهم المقاتلين في ميدان القتال، واصطحب الجيش النساء بغرض التشجيع والقتال في المعركة إن لزم الأمر، والدليل على ذلك ماحدث في معركة (مانو) بالقرب من مدينة قنطرة المسماة اليوم بـ(تيجي) الواقعة على جبل نفوسة في القسم الشرقي من حدود الدولة، حيث قتل منهم أربعمئة عالم وأسرتمانين. أما النساء اللواتي صحبن الجيش فقد أوكلن زواجهن لبعضهن بعضاً، فيما إذا وقع على احدهن سطو من جند بني الأغلب، تقوم موكلتها بزواجها، خوفاً من الفسق بها. (٨٢)

واستخدم الجيش طبولاً مصنوعة أطرها من الخشب أو النحاس ومغطاة بجلود الأبرة التي تشبه بسمكها سمك الرق، يضربونها بعقال من وبر يسمع على بعد مسافة تقدر بالمشي على الأرجل ب أربع ساعات، ولهم في ضربه طرق معروفة لديهم يستدلون بها على الغرض المطلوب، فبمجرد سماع الواحد منهم صوته يعرف المراد منه؛ أما النفير أو وقف القتال في المعركة، أو إقامة الصلاة، فكان يضرب ضربات معينة تدل على دخول وقت الصلاة، فيتوقف الجيش عن السير، ويؤذن المؤذن للصلاة، فيصلي بهم الإمام ركعتي السفر، ثم يضرب الطبل ثانية بعد انتهاء الصلاة ايذاناً للرحيل (٨٣).

الحياة العلمية:

تمتع الأئمة الرستميون بثقافة عالية، فكان الإمام عبد الرحمن من جملة حملة العلم الخمسة التي قدمت إلى المغرب، وبفضل علمه لا بفضل حسبه نال الإمامة (٨٤)، أما ابنه الإمام عبد الوهاب، فكان له من الحلول العلمية الخاصة إلى جانب المجالس العلمية العامة، مما جعل طلبة العلم يتهافتون عليه للأخذ منه، مما علا من شأنه بين الناس وحفظ له مركزه كإمام للأباضية الرستمية (٨٥)، فإلى جانب ممارسته للتدريس، شجع الحركة العلمية في البلاد، وجلب إلى مكتبة المعصومة الكتب من المشرق في مختلف العلوم والفنون، كما شجع حركة التأليف، بتأليفه كتاباً سماه (نوازل نفوسه) وهو مجموعة من الفتاوى التي كان علماء نفوسه يستفتونه بها، ويلاحظ من أسلوب الكتاب الفصاحة وحسن التمكن وعمق المعرفة في الشريعة، وكان يرسل الوفود إلى المشرق لشراء الكتب، فقد أرسل وفداً إلى الصرة مقر المذهب وأعطاه ألف دينار، لكن الوفد اشترى بالمبلغ ورقاً وأخذوا ينسخون عليه ما وجدوه من الكتب. ولكون مايكتبون عليه رقاً بخط عريض وكبير على طريقة الأوائل في الكتابة لذا فإن قطع الرق ملأت ثمانين غرارة—كيساً—ويبدو أنها وصلت صيفاً مما دعا الإمام إلى القيام بدراساتها قبل حلول الشتاء، لأنه كان يخلع ملابسه ولا يبق على جسمه سوى السروال ليزداد نشاطاً (٨٦).

أما ابنه أفلح فكانت ثقافته متنوعة، فإلى جانب فهمه لأصول العقيدة الإسلامية، كان بارعاً في الأدب والرياضيات، لكنه لم يتقن باباً من أبواب المعاملات وهو البيع والشراء الاتقان التام من وجهة نظرهم، لأنه أغفل مسألة من المسائل المختصة بالربا والبيع والشراء، أثناء مناقشة أبيه الإمام عبد الوهاب له، فمنعه من الذهاب بتجارة إلى بلاد السودان قائلاً له: «ارجع حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لاندري فرجع» (٨٧).

كما برع في قرض الشعر، من قصائده التي نظمها يحث فيها الطلبة الذين ينشدونها في المناسبات، حتى أصبحت من الأناشيد الوطنية عند أهل ميزاب، مطلعها:
العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يرك أشخاصاً روحاً وأبكاراً
أشدد إلى العلم رحلاً فوق راحلة وصل إلى العلم في الآفاق أسفاراً
واصبر على دلج الأغساق معتسفاً مهامه الأرض أحزاناً وأقطاراً حتى تزور رجالاً في رحالهم فضلاً فأكرم بأهل العلم زواراً ويستمر في قصيدته داعياً طلبة العلم إلى أعمال عقولهم لفهم ما يحفظون ويرشدهم إلى التربية النفيسة والمران الذهني فيقول:
وأحسن الكشف عن علم تطالبه والزم دراسته سرا واجهاراً ويطالب بحسن الانتقاء في اختيار تعلم العلوم فيقول:

فاطلب من العلم ماتقتضي الفروض به
واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً واطلبه ماعشت في الدنيا
ومدتها لموقف العرض أن لاتورد النارا واجعله لله ولا تجعله مفخرة ولا ترائي به بدوا
واحضاراً وهذين البيتين الأخيرين يدلان على انسجام نظرة الأئمة للعلوم مع هدف
الدين الخفيف.

أما أخت الإمام أفلح، فقد برعت في العلوم الشرعية واللغوية إلى جانب علم
التنجيم (٨٩)، وبرع الإمام يعقوب ابن أفلح بالعقائد السبئية الأخرى إلى جانب
العقيدة الإسلامية، فحفظ الانجيل والتوراة إلى جانب القرآن الكريم، وكان يستخدم
علمه بما يتناسب مع متطلبات حياته، فقد عرض عليه أهل مدينة «ورجلان» الإمامة
أثناء دخوله المدينة فأراً من الفاطميين، فقال لهم قولاً مشهوراً أصبح مضرب المثل: «وهل
يستتر الجمل بالغنم»، وهذا يدل على حسن تقديره للأمور (٩٠).

أما الامام أبو اليقظان محمد فقد كان يدرس في حلقات ثلاث أنواع العلوم المختلفة.
وكانت مساجد حواضرهم عامرة بالعلماء، ومسجدهم الجامع بالعاصمة تهرت كان
مجمعاً لأهل العلم، تعقد به المناظرات بين الفرق، وكانت كل فرقة تود الاجتماع بالفرقة
المخالفة لها في المذهب لتطلع على ماعندها، وامتازت الفرق الإباضية عن غيرها بلطف
المناظرة (٩١).

وإلى جانب المناظرات العلمية، وفدت وفود طلابية من المغرب إلى عُمان لتلقي العلم
من العلماء العُمانيين، ويصف أبو سعيد الكدومي ذلك بقوله: «كان من العلامة ابن بركة في
بها (٩٢)، وكان ابن بركة غنياً اشتهر بغناه وكان غناه ظهيراً للعلم، ولذلك يقصده
الطلبة من عُمان وغيرها، حتى قيل: ان الطلبة المغاربة كانوا لا يفقدون من مقامه» (٩٣).

وعقدت حلقات الدرس التي يدرس فيها العلوم المختلفة، فيجد الطلبة فيها كل
ما يريدون من مختلف أنواع العلوم إلى جانب العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه
وأصول، بالإضافة إلى العلوم التطبيقية من فلك وطب وكيمياء وصناعة أدوية
ورياضيات ولم يقتصر الأمر على الطلبة فحسب، بل تعداه إلى كل فرد من أفراد الأمة،
فعمدوا إلى تعليم العبيد والإماء، وبخصوص الإماء ذكر الشاخي، إن إماء نفوسة كن إذا
وردن إلى الغابة للاحتطاب يتذاكرن بمسائل كتب الإمام الفقيه (ماطوس) في الشريعة
الإسلامية (٩٤)، أما الحرائر فكن إلى حد ما أكثر معرفة بأسرار اللغة العربية والدراية في
العديد من الفنون، خاصة الفقهية منها، والتي تتماشى مع ما يتطلبه المذهب.

ويبدو أن رعاية الأئمة للعلوم جعل منها مطلباً جماهيرياً، وهذا ما أشارت إليه المصادر
الإباضية في بعض الحقب الزمنية، بأنك لاتجد قرية من القرى إلا وفيها من يفتي بها،
وربما كان في كثير من المساكن من تمتع أهلها بوجود علماء فيها، يقومون بتعليم ذويهم
وغيرهم من الناس، ويحلون لهم مشاكلهم سواء كان منها ما يتعلق بالشعائر الدينية أو
المعاملات.

أما الخطباء، فكان من أبرزهم ابن أبي ادريس، وأحمد التبة، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، والذي قال عنهم المؤرخ ابن الصغير بأنهم جميعاً كانوا يستعملون خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، باستثناء خطبة التحكيم، لكن الخطيب أحمد بن منصور كان قد شذ عنهم، وخطب خطبة التحكيم الذي بدأها: «الحمد لله الذي نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقول إلا إليه.. — إلى أن يقول — اللهم أرض وصل على الخليفين المباركين بعد نبيك أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك، وما أثراه من نبيك... إلى أن يختم الخطبة بقراءة سورة (الاخلاص) وبعد اتمامها ينزل عن المنبر (٩٦).

وتمتعت المدن الاباضية في الشمال بازدهار علمي بفضل وفرة العلماء بمختلف التخصصات من هذه المدن: تنس، والخضراء، وافكان، وبني واريغن، وستغانم، وقلعة هوار، ووهران، وتامزگران، وتاغرييت، والغزة، واوزكي ومعسكر، وشلف، والرها، وقصر الفلوس، وبيل، ومدينة جبل توجان، وجبل لازغ، حيث برز فيها عدد من العلماء كان من أشهرهم يهود بن قريش التاهرتي، الذي كان متطلعاً في عدة لغات منها، البربرية والعربية والعبرانية والأرمنية والفارسية، مما أهله بأن يصبح مرجعاً يرجع إليه بما يسمى الآن بالبحث المقارن في اللغات، وانشاء أسس النحو التنظيري (المقارن) في الجنوب من الحاضرة تيهرت، وجد عدد من العلماء في مدينة تاجمون، وتاويلا، والأغواط، وورجلان، عروسة الصحراء، وأكبر حواضر المغرب وأغناها مالا وعلماً.

أما المدن الشرقية من مثل: توزر، ونفطة، وقابس، وجربة، كانت تزخر في العلماء، وكان من أبرزهم (محكم الهواري) وابنه هود، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله، وأبو اليقظان، وعبد الله اللمطي، ومحمد بن بكر، وزكريا بن بكر الغساني، وابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهل الفارسي، وأبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي، الذي أوصى ابنه فأحسن الوصية فقال: «لا يكن نديك إلى الناس أوكد من نديك لنفسك، ولا يكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان، وكالسييل للأدران، وكالسماء للماء» (٩٩). وهناك مدن كانت حلقة وصل بين علماء المشرق وعلماء الاباضية في مختلف أرجاء الدولة لقربها من الحدود مما سهل على علمائها الرحيل للشرق والاختلاط بعلمائه منها: زواغة، ولبة، وتاورغا، وسرت، وودان، وفزان، وزويلة، وغدامس.

أما جبل نفوسة، فقد ضم مئات القرى وعشرات المدن المزدهرة بالعلم والعلماء، كان من أبرزها كياو، وتادلوت، ويفرن، وكان من أبرزها علماء هذه المدن، عالم مدينة جادو، الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة شروس، والتي تعد العاصمة العلمية في الدولة الرسمية إلى جانب العاصمة السياسية تيهرت، أبو عبيدة عبد الحميد الجنائني.

وكان لقرب الجبل (١٠٠) من المشرق وحصانته التي حتمه من اعتداء الدول المجاورة له لمدة طويلة من الزمن، واستقرار حملة العلم الخمسة فيه لأبأس بها، قبل انطلاقهم إلى مناطق المغرب الأخرى، كان له أثر في تكوين بذور علمية نضجت وأينعت فيما بعد، بفضل ما وجد فيه من علماء منهم، أبو عمران موسى بن زكريا، وأبو عمر الشيلي، وعبد الله بن مانوح، وأبو زكريا يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، الذي قاموا بتأليف موسوعة اسلامية سميت بـ (ديوان الأشياخ) المكون من خمسة وعشرين جزءاً، ولا يزال قسم من هذه الأجزاء مخطوطاً بوادي ميزاب جنوب الجزائر (١٠١)، إلى جانب مؤلفات أخرى أهمها كتاب الايضاح (١٠٢)، للشيخ عامر النفوسي المكون من ثلاثة أجزاء، يبحث في الشريعة الاسلامية، وقناطير الخيرات، للشيخ اسماعيل الجيطالي المكون من ثلاثة أجزاء والشبيه بكتاب علوم الدين للغزالي الذي يتضمن كثيراً من المعلومات من الفلسفة الاسلامية، وعلم النفس، والأخلاق والدين، والأدب، وكتاب (الوضع) (١٠٣) لأبي زكريا الذي بحث في الشريعة الاسلامية أصولاً وفروعاً. وهناك العديد من المؤلفات الأخرى لكثير من العلماء، إلى جانب المؤلفات الشرعية وقدمو الدعاء من المشرق، كل هذا ساهم مساهمة فعالة في احداث ثورة فكرية في المغرب كله أخصبها التنافس الفكري فيما بينهم وبين غيرهم من أتباع المذاهب والفرق الاسلامية الاخرى، ونتج عن هذا الاخصاب ملاحم فكرية مع السنة المالكية والمعتزلة والشيعة الفاطمية، فقد غلب مذهب مالك على افريقية وساد ماعداه من المذاهب الأخرى، إلا أن رجال المذهب من أباضية وصفرية؛ فقد تسللوا إلى القيروان وإلى مسجدها الجامع، حيث أخذ فقهاء الاباضية في ممارسة نشاطهم في أفريقية إلى أن تولى القاضي سحنون بن الفرات منصب القضاء فيها، فحظر عليهم وبدد حلقاتهم وأخذ بملاحقتهم (١٠٤)، على خلاف الاباضية الذين رحبوا بفقهاء وعلماء المذاهب الاسلامية الأخرى، وأخذوا في مناظرتهم، ولم يتعرضوا لأحد إلا من اتصف بالغلو والمروق عن الدين، ولما كان المذهب الاباضي أقرب المذاهب لأهل السنة، فقد تحالف علماء السنة مع علماء الاباضية لمناوئة المذهب الشيعي، وظهر هذا الائتلاف واضحاً في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد.

أما المعتزلة والواصلية، فكانت مضاربهم بالمغربين الأوسط والأقصى، وبلغ عدد المقيمين منهم حول الحاضرة تيهرت مايزيد على ثلاثين ألف من الواصلية، وعلى الرغم من مواقفهم السلبية من الدولة الرستمية فقد حظوا بتسامح ديني إلى أبعد الحدود، فكانت المناظرات فيما بينهم لاتنقطع، وكان قطب الاباضية عبد الله اللمطي له مواقف حميدة في جدال مع المعتزلة على نهر مينة خارج الحاضرة.

ويبدو أن المذهب الشيعي وجد طريقه إلى العاصمة تهرت، ولكن اتباعه كانوا قلة رغم اسهاب المصادر الإباضية في الحديث عن المناظرات التي عقدت بين علمائهم وفقهاء الشيعة خاصة بعد سقوط الدولة سنة ٢٩٧/ ٩٠٩ م. وكان من أبرز المناظرين يومذاك نوح بن سعيد بن زنفيل الإباضي الذي ناظر أبا تميم المعز لدين الله الفاطمي، ويستدل من هذه المناظرة على حصافة الشيخ واحترام المعز للعلماء (١٠٥)، ومما لاشك فيه أن المحاورات والمساجلات بين علماء المذهب الإباضي وشيوخ وعلماء الفرق الإسلامية الأخرى، قد أثرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب كله، وهذا ما عبر عنه النفوسي بقوله: «... وكثرت الآراء والأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل حول مسألة الإمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها، ويدعي أنه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة» (١٠٦).

وكان لاجتهادات بعض المجتهدين أمثال فرج بن نصر المسمى (بنفاث) وتبني بعض الفقهاء أمثال يزيد بن فندين آراء الامامة المشروطة دور في تطوير الأساليب والمفاهيم الإباضية وسلك علماء المذهب مسلكاً حميداً في مساعدة الطلبة الفقراء، فكانوا ينفقون عليهم من خواص أموالهم، فقد بلغ عدد العلماء في بادية إفريقية ممن ينفقون على الطلبة المحتاجين، اثنان وثلاثون عالماً، كان أبرزهم في الانفاق والايثار أبو عبيد (وشق)، وأبو زكريا الذي أنفق جل ماله على طلبته في سنين المسغبة (١٠٧).

وحدث العلماء طلبتهم على التحصيل والدراسة، منهم أبو يحيى أحد علماء قابس الذي طلب من طلابه الصعود إلى مكتبة جبل دمر الموجود في مدينة تموسلت إحدى مدن الجبل، والذي قوى من عزيمتهم بقوله: «إن رجعتم إلى أهاليكم جاهلين ولم تدارسوا ما عزمتم عليه من الكتب فتكونوا علماء كتمت كمن ترك الإسلام عمداً» (١٠٨).

ونشط الأئمة ونشط معهم العلماء في ترجمة العلوم من اللغة الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، مما أدى إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لكل من أراد الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس وحكم الهند، فكان لا بد له من معرفة اللغة العربية الفصحى، إلى جانب اتخاذاها لغة رسمية في الدواوين لأنها لغة القرآن الكريم.

وعمل العلماء على نقلها إلى المناطق النائية عن طريق تدريس العلوم الشرعية، وشجع بعض المشايخ الناس على تعلمها، فقد قال الشيخ أبو زكريا النفوسي أحد مؤلفي ديوان الأشياخ بهذا الخصوص: «أن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من مسائل الفروع وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكانها تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد» (١٠٩).

مما دفع طلاب العلم على مختلف مستوياتهم إلى الاعتكاف على دراستها وفهم نحوها ضبطاً لهم عند التحدث بها. لكن رغم ذلك فقد وجدت فجوات في مسيرة التعريب في

هذه الديار، ففي القرى الواقعة في المناطق النائية على رؤوس الجبال، كانت دروس الوعظ والارشاد تلقى باللغة البربرية قصد تعريف سكانها بالعقيدة الاسلامية ممن يجهلون اللغة العربية، إلى جانب تأليف المؤلفات التي كتبت بحروف عربية ذات مدلولات بربرية للاطلاع عليها عند الحاجة، كان من أبرزها كتاب (عقيدة التوحيد) (١١٠). الذ قام بترجمته للغة العربية الشيخ عمر بن جميع والذي يعد من أهم الكتب في علم الكلام.

ونتيجة لقلب الحرف العربي على الحرف البربري، فقد اندفع بعض البربر إلى الحنين للحروف البربرية في أيامنا هذه خاصة في بلاد ميزاب جنوب الجزائر إلى استخدام حرف الزين البربري في النقش، والطرز والنسيج وفي تزيين جبين المرأة والعروس به وهو على الشكل التالي ()، ويبدو مثلاً تغلب الحرف تغلبت الكلمة، فاللهجات البربرية المتداولة في أيامنا هذه في المغرب تأثرت بشكل كبير في اللغة العربية، ويمكننا القول بأنها عربية بشكلها ومضمونها إلى حد ما، فيكفيك كي تصبح الكلمة العربية بربرية أن تضيف إلى أولها أَل التعريف وإلى آخرها تاء فتصبح بربرية، مثال ذلك الوردة الوردت، وفي جملة عمر اسكن في الدار يحولونها إلى أعمر غ تادرات (١١١).

وهنا لابد من الحديث عن بعض الأدباء والشعراء الأباضيين، وكان من أبرزهم، بكر بن حماد التاهرتي الذي يعد من فحول الشعراء في المغرب في القرن الثالث للهجرة، والذي ولد في الحاضرة تيهرت سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م، ورحل إلى المشرق أيام شبابه والتقى بالشاعر دعلج، وعلي بن الجهم المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م. فأخذ عنهم وتأثر بهم، ورجع إلى المغرب الأوسط — الجزائر — بعد أن تم تحصيله، وأصبح من كبار شعراء الزهد في المغرب مثلاً كان أبو العتاهية في المشرق (١١٢). من شعره في الزهد قوله:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال حروقتها.
فيا أسفى من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها وأبدى المنايا كل يوم وليلة
إذا فتقت لا يستطيع رتوقها ويصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها.
ومن شعره في رثاء ولده:

بكيّت على الأجابة إذ تولوا
ولو أني هلكت بكموا عليا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخراً
وفقدك قد كوى الأكباد كياً

ومن شعره في وصف برد مدينة تيهرت:
وما أحسن البرد وريحانه وأطرف الشمس بتاهرت.
ومنهم، أحمد بن الفتح بن خزار، وسعد بن أشكل التاهرتي، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، والأديب البليغ بن هرمة وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكرهم وتتبع أشعارهم وأدبهم.

هذا ما قام به الأئمة والعلماء ورجال الفكر من جهود طيبة على مستوى الدولة وعلى مستوى المغرب العربي من نشر للثقافة الاسلامية واللغة العربية والعمل الدؤوب على تعريب مراكز الفكر والحض على تعلم اللغة لفهم أسرار العقيدة، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بجهود حسنة على المستوى الخارجي مما أدى إلى التلاقح الحضاري والانماء الفكري ما بين رسل الاباضية الممثلين بالتجار والعاملين على نشر الاسلام في الديار السودانية التي يتاجرون معها، فقد قام أبو الحسن بن علي بن يخلف التيمجاري النفوسي بجهود حسنة في نشر الاسلام في بلاد السودان سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وبفضل جهوده أسلم ملكها بعد أن كان وثنياً، كما قام عامل نفوسة القاضي عمرو بن فتح الله بارسال عدد من العلماء إلى بلاد زغاوة فمكثوا عندهم مدة طويلة حيث طاب لهم المقام، كما قام تجارهم بدور إيجابي كبير في نشره في المناطق السودانية الواقعة إلى الجنوب من الصحراء، وكان عملهم مكماً لعمل عقبة بن نافع، وعبد الرحمن بن حبيب، وعبيد الله بن الحبحاب الذين عملوا على نشر الاسلام بأطراف السودان فكان عمل التجار دفعاً جديداً له للمزيد من الانتشار في الداخل، حتى استطاعوا أن يوصلوا مبادئ الدين الحنيف إلى ما يسمى اليوم ببلاد غانة، وغينيا، وفولتا العليا، وليبيرية، والتشاد، وداهومى، وساحل العاج، وساحل الذهب (١١٣).

الحياة الاجتماعية:

تعددت اللهجات واللغات في المجتمع الرسمي بتعدد عناصر تكوينه فكان إلى جانب اللغة العربية الفصحى والعامية البدوية، اللغة الفارسية، والبربرية والحبشية، ويظهر هذا واضحاً في الكتاب الذي أرسله الامام عبد الوهاب، إلى المتمردين ضد والي جبل نفوسة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني باللغات التالية: العربية، والبربرية، والحبشية (١١٤)، لكن معظم المجتمع الرسمي من البربر سواء كانوا من قبائل مكناسة وزناتة البترية، أو من قبائل صنهاجه وزويلة ومسوفة ولتونة البرنسية، التي اتحدت مع بعضها وكونت جانب الأفارقة من السودان والعرب الذين لجأوا للدولة من المشرق أو من المغرب، وبقايا الروم والفرس واليهود كل هؤلاء كونوا الدولة الرسمية (١١٥).

فابريز الزناتيون كانت نسبتهم أكثر من البربر الكتاميين، فقبائل زناتة البترية من ماكسين، ورشفانة ومغراوة، وبنو راشد، وزقارة اتحدت من السهول الواقعة ما بين تلمسان وتيهرت مضارب لها، وقد عرف رجالها بركوب الخيل وكرم الضيافة إلى جانب تميزهم عن غيرهم بوجود العرافة بينهم ممن لديهم خبرة بالاقتفاء والكياسة وضرب الكف (١١٦).

أما سكان جبل نفوسة ودمر، فكان بعضهم يعيش على السلب والنهب، ويسمون بـ(رهانة) وهم جماعة يركبون النجب من الإبل المعروفة بالسرعة والمضي في السير، يغيرون بها على القبائل العربية المجاورة لهم، ويعودون بالغنائم إلى مواضع سكناهم في جبل نفوسة (١١٧) ودمر، لكن البعض منهم وبالأخص من سكان السهول الواقعة ما بين تلمسان وتيهرت مارسوا حياة الزراعة مثل قبائل البرانس من صنهاجه إلى جانب رعاية الماشية. وانشأوا العديد من القرى منها على سبيل المثال لا الحصر، قرية الغدير التي مكث فيها الباحث عاماً كاملاً، وقرى عديدة أخرى أنشئ بعضها على قمم الجبال، وبعضها الآخر في السهول والبطاح، إلى جانب المدن مثل، مدينة أوربي (١١٨) المسماة بالبربرية أزقي الواقعة على بوابة الصحراء القريبة من بلاد لمطة ومسوفة والبعيدة عن سجلماة بمسافة تقدر باثنتي عشرة مرحلة وأكسية أهلها من الصوف المسمى عندهم بـ(القداور) (١١٩).

ويبدو أن نمط العيش أثر في سلوكياتهم، وقلل من التعمق في فهمهم لأصول الشريعة، فبدو جبل نفوسة، اتخذوا من ربط المساجد أمكنة لربط خيولهم، ومخازن لحزن حبوبهم قصد التبرك بها لا الاساءة إليها (١٢٠).

أما بقايا الروم ممن كانوا على دين النصرانية، فقد أسلم بعضهم بحكم اختلاطهم مع المسلمين وحسن اسلامهم مثل، أبو منصور الياس والي جبل نفوسة وأحد شيوخ الدعوة الذي كان من أصل نصراني (١٢١).

أما اليهود، فقد شكلوا على الرغم من قلتهم ثقلاً اقتصادياً كبيراً، لكن قيمتهم الاجتماعية في المجتمع مفقودة خاصة في البوادي، فقد ورد في ترجمة الشيخ أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي، أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل أفتى فيها «الثالثة.. إذا عملت غزلاً قد صبغها اليهودي فسمته راين إن وضوءهن قد انتفض لمسّه لأن اليهودي نجس، فقال لمن أيا امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء» (١٢٢). لكن الفرس كانت لهم منزلة تختلف عن غيرهم، فالأئمة يرجعون بأرومتهم إلى العنصر الفارسي حسب ما روى بعض المؤرخين، لذا اعتمدوا على الفرس الموجودين في الدولة، وأطلقوا أيادهم في المجالين الاقتصادي والسياسي بمنح زعمائهم اسمى المناصب منهم، ابن وردة صاحب القيصرية المسماة باسمه، فقد كان له حرس خاص بحرس قيصرته إلى جانب تمتعه بمنصب رئيس الشرطة (١٢٣).

أما العرب الذين هربوا من حكم بني الأغلب أو من الاضطهاد المذهبي في المشرق أو المغرب، فقد عمل بعضهم في التجارة، وبعضهم الآخر كان منضو تحت لواء معين كالواصلية مثلاً، وهي إحدى فرق المعتزلة التي استقرت في المنطقة الواقعة في الشمال من تيهرت والممتدة من مستغانم إلى وهران، وفي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة (تيلغمت)، وفي الصحراء وخاصة في مدينة العطفاء الواقعة إلى الجنوب من ميزاب، حيث توجد مقبرة المعتزلة الذي لا زال أهلها إلى اليوم يحافظون عليها (١٢٤).

وبالجملة فقد تضافر أبناء المجتمع الرستمي في مساعدة بعضهم بعضاً بما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي، فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان أغنياء الناس يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص (١٢٥).

ويدو أن اختلاط العناصر والأجناس المختلفة في المجتمع الرستمي ساعد بعضها بعضاً في تغيير بعض الأنماط المعيشية لبعض الفئات من المجتمع، فالبدو الأقل حضارة تأثروا بغيرهم من العناصر الأكثر تحضراً، فانتقلوا من بساطة العيش إلى الرفاهية، فبنوا القصور والأبنية الفخمة ذات القباب المرتفعة، والحمامات المتقنة، أما الفرس فقد اقتنوا الخيول، وزينوا القصور والبيوت بالستائر المزخرفة، وتنوعت الألبسة، وتعددت الأزياء عندهم وعند غيرهم من الأجناس، وفي هذا يقول ابن الصغير: «... وليس أحد ينزل بها—تیهرت— من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانته على نفسه وماله، حتى لا ترى داراً إلا قبل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين...» (١٢٦).

ومثلما نجم عن هذا الاختلاط من حسنات نجم عنه سيئات، فقد تفشت الرذيلة وكثر الفسق وشرب الخمر، وكثر اللصوص وقطاع الطرق مما أثار حفيظة الفقهاء، فثاروا على المناكر وحرصوا الأئمة على زوالها وإن بقي آثارها، لكن رغم ذلك فإن الطابع الديني الذي اصطبغ به المجتمع الاباضي كان السمة البارزة فيها، فهناك الحج الجماعي الذي كان يقوم به أهل جبل نفوسة مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم، حتى ولد له في ركب من ركائب الحجيج ثلاثمائة مولود ذكراً، فما بالك بعدد لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلاً، ومن ليس معهم نساء (١٢٧).

ويصف الإدريسي، نزعة التدين عندهم، مبيناً أن رجالهم ونساءهم يتطهرون كل يوم عند كل صباح، ويتوضئون لكل صلاة، وثياب الجنب لا يقربها الطاهر وثياب الطاهر لا يقربها الجنب، وهم مضيافون يطعمون الطعام لعابر السبيل، ويقدمونه للفقراء والمساكين، أمناء على أموال غيرهم، محافظين على أعراضهم كمحافظتهم على أعراض حرهم عادلين في أحكامهم (١٢٨).

الحياة الاقتصادية:

توجهت أنظار الأئمة الرستمية منذ البداية إلى الاهتمام بالزراعة بصفتها المقوم الأساسي للاقتصاد، وتحلى هذا الاهتمام بحسن الاختيار لموقع الحاضرة تيهرت المحاطة بالجبال وبكثرة العيون الطبيعية الموجودة فيها، وخلوها من المستنقعات، ووجود نهري مينة وتاتش اللذان يصبان في وادي شلف، ولاسيما وأن نهر مينة كان يؤدي إلى جانب الخدمات الزراعية، خدمات صناعية بإقامة الإرخاء عليه بسبب جريانه الدائم (١٢٩).

وقد وفق الإمام عبد الرحمن بن رستم باختيار موقعها بعد أن ساوم أصحاب الأرض المقامة عليها في بيعها، لكنهم رفضوا ذلك ثم عادوا واتفقوا معه بأخذ قسط من غلاتها ومايباع في أسواقها كل عام وتم انشاء المدينة سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م، وقام الإمام برسم الموقع الذي اختط فيه مسكنه وأصبح يسمى بمعسكر الجامع ومن حوله دور الحكومة والأسواق وأحاطها بسور له أربعة أبواب، وخصص لكل سوق من أسواقها نوع خاص من البضاعة، فهناك سوق الأقمشة، وسوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصناعة، وكان أهم هذه الأسواق سوق المعصومة الذي هو بمثابة السوق المركزي الآن.

أما عن الأبواب، فكان لكل باب من أبوابها غرض معين يؤديه، فباب المطاحن؛ مخصص لنقل الحبوب وطحنها، وباب الأندلس مخصص للتجار المسافرين للأندلس عن طريق البحر بواسطة مينائها المسماة بمرسى فروخ والذي يمتاز بحصانته مما ساعد على حمايته من الأعداء، وحماية السفن من الأنواء والذي يقابله في الأندلس موانئ شاطبه، وتدمير، ومرسية، وأقله. وباب الصفا، مخصص للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه، وباب المنازل مخصص للفلاحين الذاهبين إلى حقولهم وبساتينهم والعائدين إلى منازلهم بمحاصيلهم، مما أدى إلى تنظيم الحياة فيها (١٣١).

وعني الرستميون بالاستفادة من المياه فشقوا القنوات، ووزعوا جميع أنواع المحاصيل في سهول الحاضرة إلى جانب غرس الأشجار وإقامة البساتين، وعرفت المدينة عند المؤرخين بـ (بلخ المغرب) (١٣٢)، إلى جانب سهول اسرسو في جنوب تيهرت، وسهول وادي شلف والسهول الساحلية، وكل هذه السهول زرعت بالحبوب وأشجار الفاكهة وخاصة السفرجل الذي بلغت شهرته الآفاق، إضافة إلى الواحات المقامة على مياه الأمطار والآبار (١٣٣).

أما الزراعة في جبل نفوسة، فقد اعتمدت على مياه الأمطار، لكن رعي الماشية كان الغالب على معيشة سكانه، وكان لدى الدولة مراعي واسعة وخاصة في المناطق المحيطة بالحاضرة، مما جعلها منتجعا للقبائل الرعوية القاطنة في شمال الصحراء، ووصفها ابن حوقل عند زيارته لها بقوله: «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين» (١٣٤).

وتفنن الرستميون بالأساليب الزراعية، فكانوا يبنون الأسوار حول حدائقهم وبساتينهم خوفاً من العبث بها أو دخول الحيوانات إليها. وقد يستعوضون عنها بغرز أعمدة في الأرض توصل بجبال للغرض نفسه (١٣٥)، ويبدو أن الزراعة عند الاباضية قد أصيبت بنكسة مثلما أصيب غيرها من المرافق الاقتصادية الأخرى بعد زوال الدولة، بدليل ما أشار إليه الدرجيني في كتابه الطبقات، عن نظام غراسة الأرض في واحات الجريد بقوله: «ومما حدثني به أبي عنه — رحمهما الله — أن أهل قرى تفيوس كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه» (١٣٦).

وإلى جانب الثروة الزراعية، كانت الدولة تعتمد اعتماداً خاصاً على التجارة، فكان التجار يحملون المتوجات الصوفية والقطنية وأواني الزجاج، والفخار والخزف ذا البريق المعدني، والملح إلى بلاد السودان لندرتهم عندهم، فيبيعونه بأثمان مرتفعة ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات، وكان أهل ورجلان أصحاب القوافل الذاهبة إلى السودان ثم حماة لها، ورحب الأئمة الرستميون وعمالهم بتجار السودان، وفتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم، وعامل حكام السودان الرعايا الرستمين بالمثل، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار (١٣٧).

ونشطت حركة السفن بين موانئ مدن تنس، ومستغانم، ووهران، وموانئ الأندلس، فكانت تأتي بالبضائع الأندلسية وتأخذ بالمقابل منتجات البلاد الرستمية، من منسوجات صوفية وغيرها من السلع المجسوبة من بلاد السودان من جلود وعاج (١٣٨).

وحرص الأئمة على ازدهار التجارة بتأمين السبل لحماية الأرواح والأموال، فوضعوا لها الحراس، وأنشأوا الأربطة والمنازل وحفروا الآبار، وكان بعض أولادهم يرافقون القوافل لحمايتها، فقد عين الإمام أفلح ابنه أبا حاتم لحراسة القوافل الآتية من المشرق والمحملة بالبضائع والذهب خوفاً من الاعتداء عليها من قبل سفهاء زناتة الضاربين حول طرقها التجارية (١٣٩).

ومارس الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التجارة وكان من كبار الأغنياء في الدولة، ودليل ذلك قوله: «لو لم أكن إلا أنا وابن جري وابن زلغين لا غنيانا بيت مال المسلمين مما علينا من الحقوق الشرعية» (١٤٠).

ولدينا من الروايات ما يؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب، وأبي اليقظان (١٤١) محمد بن أفلح، وأبي حاتم يوسف، بممارسة التجارة إلى جانب التجار من أبناء الرعية (١٤٢). وكانت قوافل الدولة تخرج من مدنها في المغربين الأوسط والأدنى إلى الأندلس بالشمال

إلى مصر والقيروان في الشرق، ويعود الفضل في وصول القوافل البرية والرسومية إلى مصر، إلى قبائل هواره ونفوسة وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في طرابلس والتي كانت تجوب الصحراء ذاهبة آتية محملة بالسلع التجارية وخاصة قبيلة هواره التي كانت تقطن في المناطق الشرقية من طرابلس، والتي كانت تتولى رعاية القوافل الرسومية الذاهبة إلى السودان، ويبدو أن استقرارها في الصحراء كان لهذا الغرض، فكانت لها محطات تجارية ومعاملات مع أبناء قومها من هواره تيهرت والأوراس. وقد نوه الإدريسي بثرائه بقوله: «... وهواره أغنياء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، وضروب من الأفاوية، والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفر عبده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة» (١٤٣).

وشاركهم في هذه المهنة الواصلية التي هي فرقة من فرق المعتزلة، وشاع بينهم الغنى واليسار، ورحب الأئمة وولاتهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم. ويرجع لويسكي أن سبب إجادة سكان جبل نفوسة للغة الكانم يعود لوجود جماعات من أهل السودان فيه (١٤٤).

وبالجملة فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن الدولة، والدول التي تتاجر معها. إما عن طريق تبديل السلع (المقايضة) أو عن طريق الشراء بالنقد، فكانت مدينة وارجلان تزخر بالتجار الذين يتاجرون مع بلاد غانة ونقاوة (هكاره) والذين لهم دراية باستخراج معدن التبر وضربه على شكل دنائير في دار السكة بالحاضرة (١٤٥).

وعرف المجتمع الرسومي بكده ونشاطه، وحسن تقواه والتزامه بتطبيق أوامر الشريعة، فكان الأغنياء من أبناء المجتمع يدفعون زكاتهم إلى بيت المال، وكان عمال النواحي وجباة المال يوزعون هذه الزكاة على فقراء الناحية التي يأخذونها من أغنيائهم، وينوه ابن الصغير في حسن التزامهم بدفع الزكاة وتوزيعها فيقول: «يخرج أهل الصدقات أوافي الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لا يظلمون ولا يظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعر تباع، ويدفع منها عطاء العمال، وما بقي يوزع على الفقراء، فيخصون من في البلد ومن حولها، ويخصى مافي الأهرام من الطعام ويشترى من باقي الصدقة أكسية صوف، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقدر ذلك. وما أن اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه، وقضائه، وأهل شرطته، والقائمين بالأمور مايكفيهم في سبتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين (١٤٦).

وشهدت الدولة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بسبب ما اتسمت به من سياسة التسامح مع أعدائها السياسيين والمذهبيين وترحيبها بالغرباء، الذين وفدوا عليها من كل مكان واستقروا فيها، وفي هذا يقول ابن الصغير: «وأنتهم الوفود الرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم (١٤٧)». أما عن طوائف اليهود المسمون بـ (الردهانة) والذين كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم — الجيتو — في العاصمة، فقد نالوا من التسامح وحرية العمل الشيء الكثير مما جعلهم يسيطرون على مناشط التجارة فيها.

هذا عن التجارة الخارجية، أما عن التجارة الداخلية، فقد وجد في المدن الاباضية ما يسمى اليوم بالمعارض التجارية المحلية، كان من أبرزها مدينة الخضراء الواقعة بالقرب من مدينة مليانة في الاقليم الغربي من الجمهورية الجزائرية، حيث يعقد فيها سوق محلي تعرض فيه مختلف أنواع السلع المجلوبة من القرى المحيطة بها، ومدينة أكر (١٤٨) المسماة بـ (كرات) الواقعة على نهر شلف القريبة من مدينة الأصنام والتي تمتاز بحصانتها فهي أشبه بقلعة حربية، حيث يعقد فيها سوق محلي كل يوم جمعة لعرض المنتجات الزراعية والمنسوجات المحلية، ومدينة مازونة الواقعة على البحر المتوسط، والتي تقع في الاقليم الغربي من الجزائر، يعقد فيها سوق محلي في يوم معلوم تعرض فيه منتجات الألبان والعسل، وهناك العديد من المدن التي تقوم بما قامت به المدن السالفة الذكر تعقد أسواق محلية فيها. ومن الملاحظ أن هذه العادة مازالت إلى يومنا هذا موجودة في أسواق مدن وقرى المغرب الكبير (١٥٠).

وبالجملة فإن الرخاء الاقتصادي انعكس على تقدم العمران في الدولة وخاصة في الحاضرة تيهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته للوفود القادمة من مدينة البصرة للمرة الثانية إلى الحاضرة تيهرت بقصد منح الإمام عبد الرحمن بن رستم كميات من الذهب يستعين بها في تدعيم الدولة الناشئة، فهالهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة ويشير إلى ذلك بقوله: «فرأوا هيئتها قد تبدلت ولاح، عليها رونق المدينة واليسنار، وعلت وجوه أهلها سياء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وأزينت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة...» (١٥١).

ولكن يبدو أن هذا الازدهار قد أصيب بانتكاسة بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين الفاطميين، وقضاء الفاطميين على الدولة، وفرض الضرائب الكثيرة على رعاتها، مما أدى إلى قيام الثورات ضدها التي لم تهدأ إلا عندما تخلى الفاطميون عن سياستهم التعسفية، وجنحوا إلى الاعتدال (١٥٢) فيها، إلا أن هذه الأحداث قد تركت طابعاً سلبياً على جميع الموافق الاقتصادية ومن ضمنها التجارة، فقد أشار الدرجيني إلى كيفية التعامل التجاري عند أهل جربه، بأن التبايع عندهم لم يعد بالذهب، لكن بعض الفئات من

المجتمع الاباضي وخاصة قبائل هواراة البربرية بقيت تمارس عملها التجاري بعد زوال الحكم الرستمي مع البلدان السودانية مما أدى إلى انتعاشها وتحسن أحوال المعيشة بين أفرادها، ومن الجدير بالذكر أن الاباضية مازالوا إلى الآن يعتمدون على التجارة ويقومون بممارستها بشكل واسع النطاق في بلاد ميزاب جنوب الجزائر وفي جزيرة جربة بتونس (١٥٣).

أما عن العمارة، فقد كان للازدهار الاقتصادي تأثير كبير على العمارة، حيث تطاول الناس في البنين، وقاموا بتشييد القصور والمباني الفخمة، مما دعا ابن الصغير إلى التنويه بالنهضة المعمارية أيام الإمام أفلح بقوله: «...شمخ ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبواباً من الحديد... إلى أن يقول فابتنى إبان وحموية القصرين المعروفين بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصر، يعرف به اليوم» (١٥٤).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها الحاضرة تيهرت شيء يذكر، فقد اضمحلت عقب سقوط الدولة في يد الفاطميين الذين اتخذوها ثغراً لهم أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصي، ثم جاء من بعده مصالة بن حبوس المكناسي، ولما تولى حميد بن يصلى قام بإعادة بناء القلعة والسور، وظلت مدينة تيهرت تنحدر نحو الهاوية بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تدور في ساحتها إلى أن انتهت بتوجيه الضربة القاضية عليها خلال القرن السابع للهجرة.

ويبدو أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية التي برزت بشكل واضح في بناء القصبة ذات الشكل المستطيل، والمتوج بنشز له طابع حربي، أما القصبة فكان يحيط بها من الجهة الشمالية والشرقية سور صغير، وفي داخلها فناء واسع يحوي القسم الأكبر من القصبة، ويلتصق بجدرانها من الداخل غرف تتفاوت في اتساعها (١٥٥).

وعثر رجال الآثار الفرنسيون أثناء تنقياتهم الأثرية على مسجد بني في العاصمة تيهرت، تميز بوجود قباب بيضاوية الشكل تلتصق بعضها ببعض، أقيمت فوق بيت الصلاة ووجد في داخل المسجد ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، كما وجد في أحد جدرانه طاقات حفر في داخلها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، أحدها مزين بضلوع بارزة كالفصوص تشبه إلى حد كبير جوفات قصر بالعراق، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي، كما عثرت البعثة على بقايا دور في مدينة سدراته الواقعة في الاقليم الشرقي من الجزائر على الحدود التونسية، كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف مدينة سامراء في العراق، قوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات (١٥٦).

وبالجملة، فقد تأثر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية عراقية سواء كان في انشاء المدن وتخطيطها أو في انشاء المساجد والعمائر والقصور، بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تهرت ابان الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة في العصر الرستمي الأخير (١٥٧).

الخاتمة

بذل الرستميون جهوداً طيبة في نشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية في أرجاء المغرب عن طريق الحلقات التدريسية والمناظرة العلمية بين الفرق الاسلامية، كما اهتموا بالمرافق الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة قصد انعاش بلدهم وتحسين الأحوال المعيشية لأفراد مجتمعاتهم، وشارك الأئمة أفراد الرعية في الاتجار، وهذا الأمر لم يكن محبباً في الاسلام لقوله عليه السلام: «إذا تجر الراعي هلكت الرعية».

والتزم الرستميون حكماً ورعية بتطبيق قوانين الشريعة الاسلامية في معاملاتهم التجارية، فكانوا إلى جانب ممارستهم للتجارة يقومون بنشر العقيدة الاسلامية في بلدان الممالك السودانية—وخاصة الوثنية منها—الذين يتاجرون معها. ورحب الأئمة الرستميون بالوافدين على ديار الدولة من مختلف البقاع، ومنحوهم الأمان على أنفسهم في أجناسها ومذاهبها.

وتميز المجتمع الرستمي بالشجاعة والاقدام في الحروب، والاتقان في فنون القتال، لكنه لم يسخر طاقاته في الجهاد ضد الكفار.

ونعمت الدولة بالأمن صنو العدل إلى أن سيطرت شهوة الحكم على أحكام ودب فيه الخلف والنزاع إلى جانب الفتن والحروب مع الأغلبية، مما أدى إلى اضعاف البنية السياسية والعسكرية للدولة التي انعكست على جميع مرافق الحياة فيها.

ففي الوقت الذي تولى أبو اليقظان الحكم سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، كان الأمير زيادة الله الثالث حاكماً على دولة بني الأغلب، وكانت ظروف الدولتين متشابهة تقريباً، فالإمام أبو اليقظان محمد قام بقتل أخيه أبي حاتم يوسف بن محمد من أجل الوصول إلى الحكم ضارباً صفحاً عن السخط الشديد الذي سببه هذا العمل، كما أقدم زيادة الله الثالث على

قتل المنافسين له في الامارة من أعمامه وقتل أخيه عبد الله الأحول، إضافة إلى الفتن التي قامت في بداية عهده، مما سهل الأمر على الدولة الفاطمية التي قامت باسقاطها في عام واحد (١٥٨) سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، وتسرب الضعف والانحلال إلى المجتمع الرستمي، فقل نشاط الدعاة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مما أدى إلى ظهور بعض العوائد الاجتماعية السيئة، فقد حدث أن أحد شيوخ المذهب عاد بعد غياب إلى منطقته، فوجد أهلها قد فسدوا وتغيرت أحوالهم، وليس بينهم ناه ينهاهم عن غيهم، فحاول وعظهم قائلاً: «إني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مرضية ولأنه عنها: احداها أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشماز قلبه فإن زجرهما على الاجتماع في موضع الريبة قالاً إنا متناكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بما ظهرت، والثانية ان أحدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يموئهم، ويكلفهم معاشهم فيطلقون في أموال الناس على غير رضا أصحاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحدكم أن يكون سارقاً وهو في محرابه جالساً، والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب والتفرق، فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة منكم يقولون حضرتنا وحضر تكم، ويهودينا ويهوديكم، فلم يجدوا جواباً في مجتمعهم ذلك لأنهم تواعدوا ليجابوه فلما أبطأوا استراهم فارتحل عنهم من يومه» (١٥٩). لكن هذه المناكر سرعان ما قضي عليها، بفضل جهود الشراة من العلماء والأعيان، الذين دأبوا منذ قيام الدولة وبعد زوالها إلى يومنا هذا في المحافظة على القيم الاسلامية وغرسها في نفوس أبناء المجتمع الاباضي، بتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة، في تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أصول الدين الذي يساعدهم على تقويم نفوسهم وحسن معاملتهم مع اخوانهم المسلمين.

نتائج البحث

- ١—توصل البحث إلى أن التعددية في الآراء كانت مطبقة في الدولة الرستمية.
- ٢—توصل البحث إلى عدم التمييز بين أبناء الأمة الاسلامية الواحدة، سواء كانوا من أصحاب المذهب أو من دونه مع المحافظة على حقوقهم.
- ٣—اشتراط بالامام العلم في الأمور الشرعية، والالتزام بها، والاعلان عن هذا الالتزام عند تولي الحكم.
- ٤—استخدم الأئمة سياسة التوازن بين العناصر المختلفة في الدولة، وإثارة الفتنة بينها إن لزم الأمر محافظة على عروشهم.
- ٥—على الرغم من حرصهم على تطبيق الأحكام الاسلامية، إلا أنهم مالوا إلى المباحج الدنيوية أحياناً، فكان لديهم مواكب ذات أغراض متعددة.
- ٦—تعاونوا مع أعدائهم التقليديين—الأمويين في الأندلس—ضد الأغلبية الممثلين للعباسيين.
- ٧—ازدهر الاقتصاد في عهدهم خاصة التجارة حيث برعوا فيها، ومازالوا إلى يومنا هذا يتقنون هذا الفن من فنون الحياة إلى جانب اتقانهم للصناعات التقليدية خاصة صناعة الزرابي، التي مازالت مدينة غرداية تتميز بصناعتها لها عن بقية المدن الأخرى في الجزائر.
- ٨—شهدت البلاد في عهدهم نهضة علمية مباركة خاصة في مجال اللغة والدين، وظهر التعاون الشعبي واضحاً في هذا الميدان في بناء المؤسسات العلمية ومساعدة أبنائها من الطلبة.
- ٩—حرص رجال الشرطة (المحتسبة) وأعيان الأمة في إزالة المنكر، بتشجيع من الحكام والعلماء الذين كانوا باستمرار يحثون الناس على هذا العمل.
- ١٠—العمل باستمرار على تدريب الأبناء على القتال، ووجود ميادين للسباق والطعان، ولكن المؤسسة العسكرية كانت مرتبطة بقواعد فقه المذهب أكثر مما هي مرتبطة بالواقع المتغير.
- ١١—مساعدة أبناء المجتمع لبعضهم البعض مما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان الاغنياء يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص.

الهوامش

- (١) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، لبيبة، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانية مطابع دار العودة بيروت، د-ت، ص ٤٧-٥٦.
- (٢) حملة العلم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري و عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي. راجع، الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ت-ابراهيم طلاي، د-ت، ج١، ص ٢٠، الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، ت-أحمد بن سعود السيبي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص ١١٣.
- (٣) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ط-القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٢٨.
- (٤) الشماخي، السير (سيرة علماء ومشائخ جبل نفوسة)، القاهرة، ط-حجرية، د-ت، ص ١٦٢.
- (٥) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ط-القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢١٨.
- (٦) أصحابنا: يعني من الاباضية، وهي لفظة شائعة الاستعمال عند علماء الاباضية.
- (٧) أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سيرة الأئمة وأخبارهم، ت-اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية-الجزائر، سنة ١٩٣٩م، ص ١٢٥، ٨، اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢١٨.
- (٩) النفوسي، سليمان بن عبد الله الياروني، الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، ط-دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس ١٩٨٦م، ج٢، ص ٧٠، ١٠، البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط-باريس ١٩١١م، ص ١٤٤.
- (١١) يرى المسعودي أن الرستميين من الأشبان الذين اختلف في نسبهم فمنهم من يقول أنهم ملوك فارس الأولى، ومنهم من يذهب إلى أنهم من الأندلس اللذارقة-جميع لذريق-والمسعودي مع هذا الرأي. عن الرأي الأول، راجع، الدرجيني، الطبقات، ج١، ص ٢٠، وعن الثاني، راجع، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط-دار الأندلس-بيروت ط-٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١، ج١، ص ١٨٦.
- (١٢) الملي محمد، الجزائر في مرآة التاريخ، ط-مكتبة البعث قسنطينة-الجزائر ط(١) ١٩٦٥م، ص ٦٠، ديوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط(١) القاهرة ١٩٦٣م، ج٣، ص ٣٢٠.

(١٣) النفوسي، الازهار، ص ٤٥١، ابن تاويت — محمد الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، مج ٥، سنة ١٩٥٧م، ص ١١٣.

(١٤) كتب الإمام الربيع بن حبيب رئيس أهل الدعوة الاباضية يومئذ في عُمان، رداً على الكتاب المرسل مع الرسولين من الإمام عبد الرحمن بن رستم، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، ياخواننا قد بلغنا — ماكان من قبلكم، وفهمنا من أمر الشرط في الإمامة، الا يقضي امرأ دون جماعة معلومة، فالإمامة صحيحة، والشرط باطل،... الخ» راجع، الشأخي، السير، ص ١٢١، ١٢٢.

(١٥) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ — ١٤٧، ص ١٣٣.

(١٦) نفس المرجع، ص ١٦٣، هويكنز، النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء — ليبيا — تونس سنة ١٩٨٠، ص ٢٤٧.

(١٧) النفوسي، الازهار، ص ١٦٢.

(١٨) نفسه، ص ٢١٤ — ٢١٩، وعن البيورلدي، نفسه، ص ١٩٧.

(١٩) نفسه، ص ٢٢٣.

(٢٠) نفسه، ص ١١٤، ٢٦٤.

(٢١) الطبري محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك — ط — القاهرة ١٩٦٣م، ج ٦، ص ٢٧٥.

(٢٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون، وسين مهملة جبال في المغرب تقع غرب ليبيا، بنيت منها الشعر الذي يعد دقيقه من ألد الأطعمة، راجع، الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، ط — دار احياء التراث العربي — بيروت، ج ٥، ص ٢٩٦.

(٢٣) النفوسي، الازهار، ص ١٥٥.

(٢٤) نفسه، ص ٨٦. ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة الرستميين، ط — باريس، ١٩٧٠م، ص ٥٢.

(٢٥) كان من حملته أيام الإمام أفلح العلامة شبيه الدجي، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٨١ — ٢٨٢.

(٢٦) النفوسي، الازهار، ص ١٩٨.

(٢٧) ابن الصغير، السيرة، ص ٢٦ — ٢٧.

- (٢٨) من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية، فالمصادر التي بين أيدينا لاتساعدنا على تحديدها بدقة، وقد أشارت مصادر متعددة لحدودها، لكن تعوزها الدقة. راجع، الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٤، البكري، المغرب، ص ١٤٤.
- (٢٩) ابن خرداذبه، عبد الله، المسالك والممالك، ط—لیدن—١٨٧٢م، ص ٨٨.
- (٣٠) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت—سعد زغلول—الاسكندرية سنة ٩٥٨، ص ١٧٩.
- (٣١) النفوسي، الازهار، ص ١٤٠.
- (٣٢) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٥٠٠.
- (٣٣) النفوسي، الازهار، ص ١٤٩.
- (٣٤) نفسه، ص ٢٣١—٢٣٤، ٢٣٧—٢٣٨.
- (٣٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر...، ط—بولاق، سنة ١٢٨٤م، ج٤، ص ٤٣١.
- (٣٦) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط—بيروت، ١٩٥٠م، ج١، ص ١٥٨.
- (٣٧) ابن الداية، المكافأة، القاهرة سنة ١٩١٤م، ص ٦١، النفوسي، الازهار، ص ٢٥٨—٢٥٧.
- (٣٨) الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات الاباضية، ج١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (١٢٥٦) ح ورقة (٤١).
- (٣٩) يقول علماء الاباضية: «من ترك معونة إمام العدل، فمنزله مع المسلمين خسيصة» راجع، الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى، المصنف، نشر—وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص ١٢٧.
- (٤٠) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (دراسات نقدية في تفسير التاريخ) دار اقرأ، بيروت، ط (٢)، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م (ابن خلدون، العبر، دار العلم، بيروت، د—ت، ج٤، ص ١٣٠—١٣١).
- (٤٢) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٤٧٢.
- (٤٣) يستعمل مصطلح غرب افريقية مرادفاً لمصطلح البلاد السودانية، وذلك لأن الاسلام انتشر في هذه لفترة في حزام السافانا والساحل الصحراوي من غرب افريقية بالاضافة إلى الساحل ويشار إلى هذه المناطق في المصادر الاسلامية بالبلاد السودانية، عن التعريف، راجع، I.U.A. Musa (On THE NATURE of Islamization, and Islamic reform movements in Bild assudan up to skoto Jihad Dirasat, The University of Jordan, 1979, No: 1. R 27. n. 1.

- (٤٤) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلي المغرب، ط (٢) القاهرة ١٩٦٤م، ج١، ص ٥٤٨، يعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن، ١٩٨٢م، ص ٣٥٣.
- (٤٥) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم، تاريخ افتتاح الأندلس—القاهرة، د—ت، ص ٩١—٩٢، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٥٧١، ويشهد على وجود الطائفة الأندلسية تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم (باب الأندلس)، راجع، اليكري، المغرب، ص ٦٦، النفوسي، الأزهار، ص ٢٧.
- (٤٦) إلى جانب أن التعاون بين الأمويين والرسامين كان يرمي إلى خصومة الأغلبية، كذلك كان من أهدافه إضعاف الأدارسة، والحد من انتشار التشيع في الأندلس، راجع، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٣، ص ٥٦٩، مكّي محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية—مدريد، سنة ١٩٥٤م، ص ١٦٤.
- (٤٧) النفوسي، الأزهار، ص ١٦٤.
- (٤٨) نفسه، ص ١٦٤.
- (٤٩) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٥١٣—٥١٤.
- (٥٠) النفوسي، الأزهار، ص ٢١٩—٢٢٠.
- (٥١) نفسه، ص ٢٠٤ ومابعدا.
- (٥٣) نفسه، ص ١٦٤.
- (٥٤) هم الذين باعوا أنفسهم لله، وهذا ينطبق مع قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...) سورة التوبة، آية ١١١.
- (٥٥) النفوسي، الأزهار، ص ٢١٠ ومابعدا.
- (٥٦) نفس المصدر والصفحة.
- (٥٧) نفسه، ص ٢٥٢.
- (٥٨) نفسه، ص ٢١٠.
- (٥٩) نفسه، ص ٢٣٩—٢٤٧—٢٥٣.
- (٦٠) نفسه، ص ٢٤٧.
- (٦١) نفسه، ص ٣١٧.
- (٦٣) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٢٦.
- (٦٤) نفسه، ص ٤١٦—٤١٧.
- (٦٥) يشترط أن يكون فيه ستة رجال فصاعد من أهل العلم بأصول الدين، والفقه، ومن أهل الورع والصلاح. راجع، الكرّم أبو سعيد محمد بن سعيد، الاستقامة، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١١٢.

- ٦٦) خليفات عوض محمد، النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتان، عمان، سنة ١٩٨٢م، ص ١١٢ .
- ٦٧) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ .
- ٦٨) نفسه، ٢٣٩، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦١ .
- ٦٩) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٤٢ .
- ٧٠) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦١—٣٦٢ .
- ٧١) النفوسي، الازهار، ص ٢٩٠—١٣٠ .
- ٧٢) نفسه، ص ٢٧٦ .
- ٧٣) نفس المرجع والصفحة .
- ٧٤) نفسه، ص ٢٢٥ .
- ٧٥) نفسه، ص ١٢٦ .
- ٧٦) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٢١٣، ٣٦٥ .
- ٧٧) النفوسي، الازهار، ص ١١٨ .
- ٧٨) كان من عادتهم حمل السلاح، ووضع السيوف على الأكتاف مثلما يفعل العرب الأولون، أو وضعها على الجنبات، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٢٥ ، وعن الذكورية راجع، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦٥ .
- ٧٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٣٢ .
- ٨٠) نفسه، ص ٧٠ .
- ٨١) نفسه، ص ١٧٢ .
- ٨٢) نفسه، ص ٢٨٠ ومابعدھا .
- ٨٣) نفسه، ص ٢٧٩ .
- ٨٤) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢٢٢ .
- ٨٥) نفس المرجع والصفحة .
- ٨٦) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٧٢ ومابعدھا .
- ٨٧) عملاً بقول الخليفة عمر الذي قال: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، راجع، النفوسي، ص ١٩٥ .
- ٨٨) النفوسي، الازهار، ص ١٠٩ ، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٤٧ .
- ٨٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ ، أبوزكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة، وأخبارهم، تحقيق، اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية ، الجزائر، سنة ١٩٧٩م، ص ٨٩ .
- ٩٠) النفوسي، الازهار، ص ٣٩٤ .
- ٩١) نفسه ، ص ٢٨٧ .

٩٢) بهلا، احدى مدن المنطقة الداخلية بسلطنة عُمان، تقع بالقرب من مدينة نزوى وإليها ينتسب ابن بركة، أبو محمد بن عبد الله السليمي البهلي، من علماء الاباضية المشهورين، أنشأ مدينة فيها، أشهر مؤلفاته كتاب الجامع، توفي في القرن الرابع الهجري، راجع، كتاب الجامع، ت— عيسى الباروني، طرابلس، ١٩٧٣، ج٢، ص ٢—ب من المقدمة، ووردت عند ياقوت في كتابه المعجم، ج٥، ص ٥٦٠، بأنها مدينة ساحلية.

٩٣) الكرمي أبو سعيد محمد بن محمد، الاستقامة، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج١، ص ٥.

٩٤) الشاخي، السير، القاهرة، المطبعة البارونية، ١٣٢٠هـ ص ٥٤٥.

٩٥) نفس المرجع والصفحة.

٩٦) النفوسي، الازهار، ص ٢٨٧ وما بعدها.

٩٧) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، الملي، محمد مبارك، الجزائر في مرآة التاريخ، ط— مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط (١) سنة ١٩٦٥م، ص ٦٣.

٩٨) ديوز، المغرب، ج٣، ص ٣٨١.

٩٩) نفس المرجع، ص ٣٩٢.

١٠٠) عن علماء الجبل، ديوز، ج٣، ص ٣٨٦، وعن ديوان الأشياخ، راجع نفسه، ص ٣٨٨.

١٠١) من مؤلفات جبل نفوسة، موسوعة في الشريعة الاسلامية موسومة بـ(ديوان العزابة) ألفها عشرة من العلماء في عشرة أجزاء، وما زالت مخطوطة، في خزائن وادي ميزاب، جنوب الجزائر، عنها، راجع، ديوز، المغرب، ج٣، ص ٣٨٩.

١٠٢) عن كتاب الايضاح، راجع نفس المرجع والصفحة.

١٠٣) عن كتاب الوضع، راجع نفس المرجع، ص ٣٩٠.

١٠٤) المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ج١، القاهرة، سنة ١٩٥١، ص ٤٠٩، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تونس، سنة ١٣٢٠هـ ج٢، ص ١٩٢.

١٠٥) لما قبض على أبي نوح وجيء به إلى المعز مكبلاً بالأصفاد قال المعز: «إن القيود دخلت في رجلك بالعلم ولا تخرج إلا بالعلم». قال أبو نوح: «عسى الله أن يجعل ذلك كفارة لذنوبي، فغضب المعز». وقال: «أفنحن مسيئون فيك؟». قال أبو نوح: «قلت ليس في ذلك ما يدل على اسائتك، ألا ترى أن الله يتلى عباده، فيصبروا فيؤجروا، وليس في ذلك ما يثبت الاساءة لله، فزال غضبه فطلبتة العفو»، فغفى... وقربه.

وفي إحدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز: «ما الدليل أن هذه الصنعة صناعاً؟ أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية. فقال أبو نوح: «فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب». وتآدب أبو نوح وقال: «جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع، ولا صنعة بغير صانع، فاعجب المعز بلباقته». راجع، الشماخي، ص ٣٥٢، اسماعيل محمود، الخوارج، ص ٣٣٤.

(١٠٦) النفوسي، الازهار، ص ١١٥.

(١٠٧) نفسه، ص ١٠٢ وما بعدها، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٩٩.

(١٠٨) ديوز، المغرب، ...، ص ٤٠٣.

(١٠٩) الشماخي، السير، ط—البارونية، ص ٤٠٢.

(١١٠) ديوز، المغرب...، ج٣، ص ٤١٣.

(١١١) نفسه، ص ٤١٥.

(١١٢) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٦، الملي، الجزائر...، ص ٦٣—٦٤، بونار— رابع، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٢٠ وما بعدها.

(١١٣) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥١—٥٢، التقى الباحث أثناء إقامته في الجزائر مع أحد علماء الاباضية المعاصرين، فأكد له وجود جماعة منهم في غانة في أيامنا هذه، وأكد هذا القول المستشرق ماسكراي الذي تحدث إليه الشيخ عبد الله أحمد أحد مشايخ الاباضية وأكد له هذه الحقيقة، راجع،

Masqueray E: CHRONIQUES, Abou zakaria, Alger, 1978, p:279

(١١٤) النفوسي، الازهار، ص ١٥٣.

(١١٥) اليعقوبي: أحمد بن أبي اليعقوب بن واضح، البلدان، ط—لیدن، ١٩٨٢، ص ٣٥٩، محمود اسماعيل، الخوارج...، ص ٢١٣—٢١٨.

(١١٦) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المعروف بـ(نزهة المشتاق)، ط—لیدن، ١٩٦٨م، ص ٨٨.

(١١٧) نفسه، ص ١٢٣، وعن النجب، مازال أهل المغرب يسمون هذا النوع من الإبل بالمهري إلى يومنا هذا، مشاهدات الباحث، كذلك أورد هذه التسمية، النفوسي في كتابه الازهار، ص ١٠٩.

(١١٨) تسمى بالبربرية أزقي، وهناك اقليم في عمان يحمل نفس الاسم مع شيء من الحريف يسمى بـ(أزكي) يمتاز بكثرة الأفلاج، عن أزقي، راجع، النفوسي، الازهار، ص ٥٨، وعن أزكي راجع، ولكنسون، الافلاج ووسائل الري في عمان، تعريب—محمد أمين عبد الله، وزارة التراث، سلطنة عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٠.

- (١١٩) النفوسي، الازهار، ص ٥٨ .
- (١٢٠) الجنحاني، حبيب، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة بيروت، ط (١). ١٩٨٠م، ص ١٠٨-٤١١٠٩ .
- (١٢٢) نفس المرجع والصفحة.
- (١٢٣) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس ١٩١١م، ص ٦٨ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة ١٩٦٦م، ج٢، ص ٥٧٦ وما بعدها .
- (١٢٤) ديوز، المغرب...، ج٣، ص ٤٨٠ .
- (١٢٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
- (١٢٦) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، ١٩٠٧م، ص ١٢—١٣، النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
- (١٢٧) الجنحاني، حبيب، دراسات مغربية، ص ١٠٨—٠٩ .
- (١٢٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢٨ .
- (١٢٩) نفسه ص ١٤٥، النفوسي، الازهار، ص ١٤ وما بعدها .
- (١٣٠) النفوسي، الازهار، ص ٣١، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ١٦٧ .
- (١٣١) نفس المرجع، ص ٢٧—٢٨، عن مرسى فروخ، راجع، البكري، المغرب...، ص ٨١، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٠ .
- (١٣٢) النفوسي، الازهار، ص ٧ .
- (١٣٣) اسماعيل محمود، الخوارج...، ص ٢١٠ .
- (١٣٤) ابن حوقل، ابو القاسم، المسالك والممالك، ط—لیدن، ١٨٧٣م، ص ٨٦ .
- (١٣٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٩ .
- (١٣٦) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
- (١٣٧) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط—لیدن، ١٩٦٨م، ص ٨—٩، ١١—١٢، ٣٥ .
- (١٣٨) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص من الآندلس من كتاب ترجيح الأخبار وتفريغ الآثار، والمسالك إلى جميع الممالك، مدريد سنة ١٩٦٥م، ص ١٩ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٥٧٦ وما بعدها، أما بما يخص المنسوجات الصوفية، فما زالت النساء في غرداية ببلاد الميزاب يزاولن هذه الصنعة إلى يومنا هذا، وتعد زراي غرداية من أجود الزراي في المغرب كله. مشاهدات الباحث.
- (١٣٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

(١٤٠) نفسه، ص ١٣٧ .

(١٤١) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

(١٤٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥٠ .

(١٤٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٣٢ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٣٤٩—٣٤٨ .

Lewickit: Etudes Ibadites Nord- Africaines Warsaw,
1955: p, 71 .

(١٤٥) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٨—٩ .

(١٤٦) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب الوضع في الفقه الاسلامي، ط— القاهرة
سنة ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م، ج١، ص ١٩٠ .

(١٤٧) ابن الصغير، سيرة الأئمة، بايس، ١٩٥٨ م، ص ٢٧ .

(١٤٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨ م،
ص ٢٠٢ .

(١٤٩) النفوسي، الازهار، ص ١٨ .

(١٥٠) نفسه، ص ٦١ .

(١٥١) مشاهدات الباحث .

(١٥٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، سنة ١٩٥٨ م، ص ١٣ .

(١٥٣) الشماخي، السير، ط— حجرية، د—ت، القاهرة، ص ٣٢٠—٣٢٣ .

(١٥٤) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .

(١٥٥) النفوسي، الازهار، ص ١٨١ .

(١٥٦) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٩ وما بعدها .

(١٥٧) نفس المرجع والصفحة .

Marçais, G: La BERBE'RIE Musulmane du Moyen
AGE, Paris, 1954, p: 166 .

(١٥٩) ابن عذاري، البيان المغرب، ج١، ص ١٨٣ ، النفوسي ، الازهار، ص ١٩١ .

(١٦٠) الجنحاني، دراسات مغربية، ص ١٠٨ .